لك أيها الداعي



أبوعرفات/ محمد بن نبيه علي

aboarafat.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾.[3]

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالةٍ فى النار وما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

---

[1] سورة آل عمران (١٠٢).

[2] سورة النساء (١).

[3] سورة الأحزاب (٧٠ – ٧١).

أحبتي فى الله هذه بعض الخواطر الدعوية كنت قد بدأتها يوم أن كنت أعمل بحقل الدعوة فى دولة الإمارات العربية الشقيقة أدام الله عليها نعمة الأمن والأمان وزاد رعاتها تقى وعافية وشعبها كذلك.

وهذا تحديداً سنة ١٤١٢ هـ إلى سنة ١٤١٧ هـ وانتهيت منها بعد عودتى إلى الوطن العزيز مصر باركها الله تعالى ووفق رعاتها وعلماءها وعامة شعبها وهذا تحديداً فى شهر شعبان سنة ١٤٢٣ هـ.

وما هذه الخواطر إلا غيرة منى على الدعوة والدعاة خاصة وأننى رأيت فئة تستهين بالدعوة والدعاة إلى درجة أنهم يعمدون تحويل مسار أولادهم إلى غير مسار الدعوة والدعاة فَضْمنَتٌ هذه الخواطر النصائح للدعاة.

وكنت قد استشرت فضيلة الشيخ/ سعد بن عبدالرحمن الحصين – حفظه الله – فى تسمية هذا الكتيب فأشار فضيلته بأن يسمى "إليك أيها الداعي" ونسأل الله أن ينُّفع به.

وهذه الرسالة تتضمن الفصول الآتية: الدعوة وشرف الدعاة – فرضية الدعوة – حكم الدعوة – ابتعاث الرسول صلى الله عليه وسلم للدعاة – مقام الدعوة – تميز الدعاة – عوائق فى وجه الدعوة – فضل الله على الدعاة – أساليب الدعوة – مهمة الدعاة – مجالات الدعوة – الهدف من الدعوة – صفات الدعاة.

الدعوة إلى الله وشرف الدعاة

إن المتأمل فى كتاب الله تعالى ليجد نصوصه تؤكد حقيقة الدعوة إلى الله وتدلل على وجوبها وفرضيتها حيث إن أغلب الآيات الدالة تبدأ بفعل الأمر والتى لا تبدأ بفعل الأمر تتضمن وعداً بالهناءة فى الدنيا والآخرة ولك مجموعة من الأدلة منها:

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾. [١]

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾. [٢]

وقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾. [٣]

وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. [٤]

وقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. [٥]

---

[١] سورة النحل (١٢٥).

[٢] سورة يوسف (١٠٨).

[٣] سورة الشورى (١٥).

[٤] سورة القصص (٨٧).

[٥] سورة آل عمران (١٠٤).

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾. [1]

[1] سورة الأحزاب (٢١).

فرضية الدعوة بين الكفاية والعين

هل الدعوة واجبة على كل مسلم أو على طائفة من الناس؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن ننظر فى كتاب الله تعالى فالله جل جلاله يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ﴾.[1]

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.[2]

فإنك لو نظرت فى كتب التفسير لوجدت أن المفسرين رحمهم الله قد بينوها بياناً شافياً، فمثلاً فى التفسير العظيم للإمام ابن كثير نجد كلاما خلاصته: "ولتكن منكم أمة منتصبة بهذا الأمر العظيم تدعوا إلى الله وتنشر دينه وتبلغ أمره".

وكلمة "أمة" تأتى فى القرآن الكريم مطلقة ويراد بها معانى كثيرة منها:

أنها تأتى ويراد بها فرد واحد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾.[3]

---

[1] سورة آل عمران (١٠٤).

[2] سورة التوبة (١٢٢).

[3] سورة النحل (١٢٠).

وتأتى ويراد بها الجماعة أو الطائفة كقول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. [١]

وكما فى الآية التى نحن بصدد الكلام عنها وهى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ﴾ فالأمة هنا الطائفة والجماعة وفى الآية قرينة تؤكد بأن الأمة ليست على إطلاقها ولكن هى الجماعة من الناس، فقوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ للتبعيض، فإذا كان المقصود بالأمة فى الآية الجماعة فيكون المعني بالجماعة جماعة الدعوة وهم علماء الأمة ويوضح هذا قوله تعالى ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

فإن أمر الدعوة لو قام به الجاهل لأتى بنتيجة عكسية وكان ضرراً على الدين وكان سلاح هدم للدين، فاتخاذ الناس رؤوسا جهالا – أغلبهم – لا يفقهون من الدين إلا ما يحلو لهم، وغاية ما يملك بعضهم من العلم، إنما هو مجرد أفكار وثقافات أشتات، زادُ كثير منهم مجرد العواطف والحركة، حتى كاد أن يكون مصطلح الداعية عندهم من ليس بعالم، وأن العالم ليس بداعية.

وأحيانا يقولون: فلان داعية – أي ليس بعالم – وفلان شيخ من المشايخ أي ليس بداعية! وهذا وقوع فيما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم من اتخاذ (رؤوسا جهالا)، يفتون بغير علم، فيضلوا ويضلوا فيما رواه عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ اللهَّ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا

---

[١] سورة القصص (٢٣).

يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا). [1]

ولذلك يقول أبو حيان الأندلسى تحت قوله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ﴾: إن المراد بالأمة الآمرة والناهية من يتعين لصلاحية ذلك حيث إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يكون إلا لمن عَلِمَ المعروف والمنكر وكيف يترتب على القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن الجاهل ربما أمر بمنكر ونهى عن معروف.

ويذكر مثالاً عاصره وشاهده فيقول: "وقد رأينا من ينتمي للصلاح يأمر أصحابه بالاجتماع لمغن شاب يغني لهم بالتغزلات والمجون وينافخ فى قصبته فيخرج منه أصوات فيتلذذون بذلك ويرقصون ويدور أحدهم مائة دورة وأكثر منها ويجعل أذنه عند القصبة والمغنى يتفنن فى رقصه ويمشى على جنبه ملاصقاً إلى الأرض من أول الإيوان إلى آخره ويشهد ذلك الجمُّ الغفير والجمع الكثير ممن ينتمى إلى الإسلام فلا ينكر أحد منهم شيئاً من ذلك وهو من أعظم المنكرات". [2]

ولعل أبا حيان يقصد الصوفيين فهذه طريقتهم فى الدعوة والذكر كما هو مشاهد من أحوالهم فإنك لتصاب بالدهشة عندما ترى وتسمع ترنم القوم لآلات اللهو والمعازف وأصوات المغنيين وهم يقولون الله .. الله .. الله.

---

[1] صحيح البخاري (١٠٠).

[2] البحر المحيط (٣٦١/١).

فهل يوكل أمر الدعوة لهذه الفئة؟

لا وألف لا وليس هذا مراد الآيات، وعلى هذا فالجماعة في الآية هم صفوة الأمة وصفوة الأمة هم علماؤها، والمقصود بالعلماء: العالمون بشرع الله والمتفقهون في الدين والعاملون بعلمهم على هدى وبصيرة على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة، الداعون إلى الله بالحكمة التي وهبهم الله إياها: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.[1]

والحكمة: العلم والفقه، فعلى هذا؛ فالعلماء بهذا التعريف: هم الدعاة بداهة، والعلماء هم ورثة الأنبياء، والأنبياء هم الدعاة، فأجدر من يتصدر الدعوة بعد الأنبياء – وقد انقضت النبوة وانتهت – هم العلماء وذلك لأسباب:

- لأنهم ورثتهم والأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا إنما ورثوا هذا العلم، والدعوة إنما تكون بالعلم فأهل العلم هم الدعاة.
- العلماء هم حجة الله في أرضه على الخلق، والحجة لا تقوم إلا على لسان داعية بفقهه وبعلمه وبقدوته فعلى هذا فالعلماء هم أجدر الناس بالدعوة.
- العلماء هم أهل الحل والعقد في الأمة وهم أولوا الأمر الذين تجب طاعتهم كما قال غير واحد من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ

---

[1] سورة البقرة: (٢٦٩).

مِنكُمۡ﴾ [1]، قال مجاهد: هم أولوا العلم والفقه وإذا كانوا هم أولوا الأمر فولايتهم للدعوة من باب أولى.

- العلماء هم المؤتمنون على مصالح الأمة العظمى، على دينها وعلى دنياها وأمنها؛ ومن باب أولى أن يكونوا هم المؤتمنون على الدعوة وشؤونها.
- العلماء هم أهل الشورى الذين ترجع إليهم الأمة في جميع شئونها ومصالحها، وإذا كانوا يستشارون في جميع مصالح الأمة – في دينها ودنياها – فمن باب أولى أن يكونوا هم أهل الشورى في الدعوة وقيادتها.
- العلماء هم أئمة الدين، والإمامة في الدين فضل عظيم وشرف ومنزلة رفيعة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [2]، والإمامة في الدين تقتضي بالضرورة الإمامة في الدعوة وما الدين إلا بالدعوة وما الدعوة إلا بالدين.
- العلماء هم أهل الذكر، والذكر بالعلم والدعوة كما قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [3]، فعلى هذا هم أهل الدعوة إلى الله تعالى.
- العلماء أفضل الناس كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [4]، وأفضل الناس هو الداعي إلى الله.

---

[1] سورة النساء (٥٩).

[2] سورة السجدة (٢٤).

[3] سورة النحل (٤٣).

[4] سورة المجادلة (١١).

- العلماء هم أزكى الناس وأخشاهم لله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾[1]، وإذا كانوا هم كذلك فهم الأجدر أن يكونوا هم الدعاة على هذه الصفات وهم الأجدر أن يكونوا هم القادة والرواد في الدعوة.
- العلماء هم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر بالعلم والحكمة، إذا فالعلماء هم الدعاة.
- العلماء هم شهداء الله الذين أشهدهم الله على توحيده وقرن شهادتهم بشهادته – سبحانه – وبشهادة ملائكته وفي هذا تزكيتهم وتعديلهم فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾[2]، ومن كانوا كذلك فهم المؤتمنون على الدعوة، وهم ا لأَوْلَى بقيادتها وريادتها.

هذا على وجه العموم ، فالعلماء هم أهل هذه الخصال ولا يلزم أن تتوفر كل هذه الخصال في كل عالم فالكمال لا يكون إلا لله – سبحانه – لكنهم في الجملة – أي العلماء – لا شك أنهم المتميزون بهذه الصفات الجديرون بها.

---

[1] سورة فاطر (٢٨).

[2] سورة آل عمران (١٨).

حكم الدعوة

وعلى ما مضى يقول العلماء: إن الدعوة إلى الله تعالى فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التى يقوم فيها الدعاة فإن كل قطر وكل إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها فإذا قام بها من يكفى سقط عن الباقين ذلك الواجب وكانت الدعوة فى حق الباقين سنة مؤكدة وعملاً صالحاً، وإذا لم يقم أهل الإقليم أو أهل القطر المعين بالدعوة على التمام كان الإثم عاماً.

أما بالنسبة إلى عموم البلاد فالواجب أن يوجد طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله جل جلاله فى أنحاء المعمورة لتبلغ رسالات الله ولتبين أمر الله بالطرق الممكنة.

ولعلك عقلت أيها القارئ من جملة "طائفة منتصبة" أى مخصصة يخصص لها راتب من بيت مال المسلمين ولا عجب فى هذا.

ابتعاث الرسول صلى الله عليه وسلم للدعاة

قد بعث صلى الله عليه وسلم بالدعوة وأرسل الكتب إلى الناس وإلى الملوك العظماء ودعاهم إلى الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يبتعث ناساً من عامة أصحابه ولكن كان يبتعث من صفوتهم.

فمثلاً عندما بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة كان مصعب مؤهلاً للدعوة محنكاً عنده القدرة على إستماع رأى الغير ومناقشته وتحليله وإقامة الحجة عليه، ومعلوم أن المدينة فى الوقت الذى ذهب فيه مصعب رضي الله عنه كان بها جمع كبير من أهل الكتاب ومعلوم أن فيهم الأحبار والرهبان وفيهم العلماء بكتبهم وفيهم الذين بشروا أهل مكة ببزوغ نجم نبي آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم، فهل لو كان مصعب بن عمير رضي الله عنه غير مؤهل للدعوة وغير معد لها أكنت ترى لدعوته صدى وسط قوم يعرفون حقيقة الأمر.

فحرى بالهيئات الدعوية أن تقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا تبتعث إلى الدول للدعوة إلا من كان مؤهلاً لها قادراً على المحاورة والمناقشة.

ولكن يا ترى هل حكم الدعوة يستمر على الفرض الكفائي فى كل الظروف؟

إن كون الدعوة فرضا كفائيا أو فرض عين أمر نسبي يختلف بإختلاف الأحوال فمثلاً لو قل الدعاة وكثرت المنكرات وظهرت الفتن وغلب الجهل كحالنا فى هذه الأيام لتغير الحكم فوراً وتصبح الدعوة فى هذه الظروف فرض عين على كل واحد بحسب طاقته من حاكم أو محكوم وهذا فى العالم أجمع، أما إذا كان فى محل محدود كقرية أو مدينة ووجد من يتولى أمر الدعوة ويقوم به ويبلغ أمر الله كفى وصار التبليغ فى حق غيره سنةً مؤكدةً لأنه قد أقيمت الحجة على يد غيره ونفذ أمر الله على يد سواه من الدعاة.

مقام الدعوة

اعلم أيها الأخ الكريم أن الدعوة إلى الله تعالى أشرف عمل على الإطلاق لأنها عمل الأنبياء وورثها العلماء عن الأنبياء وشرف العامل يستمد من شرف العمل وشرف العمل يستمد من شرف المكان ومادة العمل، فالمادة هى الدعوة إلى الله والعمل هو القيام بها والعامل فيها هم الأنبياء وورثة الأنبياء هم العلماء فمقام الدعوة أفضل المقامات، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. [١]

والعلماء لا يمكن أن تخلو الأرض منهم، وهذا دفعا لدعوى قد يدعيها بعض الجهلة ممن ينتسبون للدعوات والحركات المعاصرة وغيرهم وهي زعم بعضهم: أنه لا يوجد علماء قدوة أو أن العلماء الذين يمكن الاقتداء بهم مفقودون أو أنهم يتهمون بمطاعن تسقط اعتبارهم أو نحو هذا من الدعاوى التي لا تجوز شرعا بل هي مخالفة للواقع ومخالفة لصريح النصوص.

فإن الله – سبحانه وتعالى – تكفل بحفظ هذا الدين وتكفل بحفظ طائفة من الأمة تبقى ظاهرة منصورة أمرها بَيِّن – وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا بأهل الحجة والقدوة وهم العلماء ولا يمكن أن يخلو كل الزمان وكل المكان في الأرض من العلماء – إلى قيام الساعة.

---

[١] سورة فصلت (٣٣).

قال الحسن البصري فى تفسيرها: "هذا حبيب الله هذا ولى الله هذا صفوة الله هذا خيرة الله هذا أحب الخلق إلى الله أجاب الله فى دعوته ودعى الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً فى إجابته وقال إنني من المسلمين". [1]

ونظراً لمقام الدعوة وشرفها قال تعالى فى حق نبيه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾. [2]

قال الحسن البصري فى تفسيرها: "لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا إله إلا الله ويدعوا إلى ربه كادت العرب تكون عليه جميعاً". [3]

وقال الحسن: "لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبدت الإنس والجن وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به". [4]

---

[1] الطبري في التفسير (٢٤/ ١١٧).

[2] سورة الجن (١٩).

[3] الطبري في التفسير (٢٩/ ١١٩).

[4] زاد الميسر (٨/ ٣٨٤).

تميز الدعاة

وبعد أن بينا شرف الدعوة وجمال مقام الداعي نوضح هدي النبي صلى الله عليه وسلم مع الدعاة الذين كان يرسلهم إلى الملوك والرؤساء.

كان صلى الله عليه وسلم يميزهم على من يجلسون ولا يبعثون والتميز نابع من فرق العلم والفقه وكان هذا الأمر مشهوراً فى عصر النبوة حيث كان يقدم صاحب العلم والفقه ويُميز حتى عند الدفن وفى دخول القبر وهذا لإظهار شرف العمل فى الدعوة.

وكان لهذا التمييز أثره الفعال فى الدعوة ومن ثم وصل الإسلام فى مدة وجيزة إلى شتى البلاد وهذا مع قلة الإمكانيات المادية.

عصر تعامى:

وإن تعجب فعجب ما يحدث فى بلاد المسلمين!

من احتقار العمل فى الدعوة حيث أنه أصبح العمل فى الدعوة من باب سد الفراغ والعجز الوظيفي.

آه من عصر تعامى فوق عينيه غمامة.

عوائق فى وجه الدعوة

إن المتأمل فى واقع المسلمين ليجد أنهم ينفذون مخططات أعدائهم تنفيذاً محكماً فمثلاً من مخططات الصليبية القضاء على القرآن ومحوه لأنهم يعرفون أن القرآن هو المصدر الأساس لقوة المسلمين وعودتهم إلى سالف عزهم ومجدهم.

ولذا يقول "غلاد ستون" فى مجمع العموم البريطاني وقد رفع المصحف أمام الحاضرين: "ما دام هذا القرآن موجوداً فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هى نفسها فى أمان". [١]

ويقول المنصر الصليبي "وليم جيفورد بالكراف": "متى توارى القرآن ومكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى الفرد العربي يتدرج فى طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمدٍ وكتابه". [٢]

هيا نتأمل الواقع المرير حتى تعرف كيف يتم القضاء على القرآن؟

يتم القضاء على القرآن بتزهيد الناس فى تعلمه وتعليمه ومن البلاد الإسلامية من يزهد فى تعليم القرآن والعلوم الشرعية بطريق مباشر وغير مباشر حيث إنهم يرصدون مكافئات عظيمة جداً للاعبي الكرة ولجميع الألعاب تصل إلى ملايين بينما من يتعلمون القرآن أو يعلمونه إن كوفئوا فمكافئتهم دراهم معدودة، وفى التوظيف والتعاقدات يقدم مدرس التربية الموسيقية على مدرس التربية الدينية وفى مجال الدعوة يقدم دعاة الفن على دعاة الحق.

---

[١] كتاب الإسلام على مفترق الطرق (ص ٣٩).

[٢] كتاب جذور البلاء (ص ٢٠١).

حتى فى الرواتب تجد فى الدول الإسلامية راتب مدرس اللعب وضارب الوتر يضاعف راتب معلم القرآن والداعية عشرات المرات، لذلك الآباء والأمهات عندما يرون هذا الفارق الكبير فى التوظيف والمرتبات يصرفون أبصارهم عن تعليم أولادهم القرآن ويصرفون أبصارهم عن مجال الدعوة إلى الله، حيث إن الداعية مع ضعف راتبه يطارد ويعتقل بينما لاعب الكرة وضارب الوتر يقربون من مجالس الحكام ويرغب فى مجالستهم.

وبهذا الترتيب يتم القضاء على الإسلام ويتوارى القرآن الكريم وتضعف همة المسلمين وتضيع كرامتهم وهذا هو الواقع الذى يهرب منه أهله، ألم أقل إن المسلمين ينفذون بدقة لا مثيل لها مخططات عدوهم!!

وبما مضى تضيع همة الدعاة، فالداعية يريد أن يذهب إلى كل مكان من أجل نشر دين الله ولكن كما يقال فى الأمثلة الشعبية: "العين بصيرة واليد قصيرة"، ومعنى هذا أن الداعية يريد أن يفعل كل شيء ولكنه لا يملك المال الذى ينفذ به دعوته فإذا ألمت به ضائقة لا يجد ما يدفع به ضيقه فتجده يلجأ إلى عمل يكتسب منه ليعينه على رفع الضائقة فيصبح خيارين أحلاهما مر:

١. إما أن يترك الدعوة ويبحث عن عمل آخر يستر به نفسه.
٢. وإما أن يعيش غارقاً فى ديونه لا يجد قوت يومه فيكون ميتاً يمشى على الأرض فالراتب الذى يتقاضاه الداعي لا يكفى لشراء كتاب واحد فلو وجهه لشراء الكتب فمِن أين يأكل ولو وجهه إلى الأكل فكيف يقرأ ليوصل العلم الصحيح إلى الناس.

ففى اليوم الذى ترى فيه الداعي إلى الباطل تصرف له سيارة ليسهل عليه الذهاب إلى أى مكان شاء لأجل نشر الباطل ومحاربة الحق تجد دعاة الحق يمشون على الأقدام إلى القرى والنجوع فيصل المسجد منهك القوى لا

يستطيع الكلام هذا إن لم يجد أجرة السيارة، أما إن وجدها يركب سيارة نصف نقل فيكون محشوراً وسط الخراف والنساء من كل ناحية فيكون محل سخرية من كل الناس ولا تسلم ثيابه من القذر فبالله عليكم من هذا حاله يُسمع كلامه وهل هذا إلا عمل محكم لضرب الإسلام فالأمر لله والمشتكى إليه.

والحكومات تسعى من خلال هذا السلوك مع الدعاة تريد أن تفصل بين الداعي ودعوته ثم من بعدها يقولون هناك فرق بين الدعاة والعلماء يريدون من وراء ذلك أن يفقدوا النشىء أن يقتدوا بالدعاة ولا شك أن هذا أدى إلى إفرازات خطيرة منها:

كثرة الشعارات والأهواء والانتماءات والافتراقات والعصبيات للجماعات أو للأشخاص مع العلم بأن الأمة لا يجمعها على السنة والخير إلا علماؤها، ومهما بالغت الفرق، أو مهما بالغت الجماعات والدعاة في أي مكان وفي أي زمان للسعي إلى جمع المسلمين دون الاسترشاد بأهل العلم، ودون أن يجعلوا العلماء قادة وموجهين ومرشدين وأئمة للدعوات، فإن الشمل لن يجتمع. نعم لن يجتمع شمل الأمة إلا بالالتفاف حول علمائها، مهما بلغت الدعوات من السعي إلى وسائل الجمع وأساليبه. وهذا الخلل سبب رئيسي في كون الجماعات تتنافر ولا تتفاهم، وتفترق وتفرِّق أكثر مما تجتمع وتجمع.. وواقعها شاهد على ذلك.

نشأت لبعض الدعوات مناهج وأفكار وكتب و مؤلفات معزولة عن السنن وعن العلوم الشرعية بشموليتها بل وحتى بتفصيلاتها وصارت كل طائفة تأخذ من العلوم الشرعية ما يناسب أوضاعها. وهذا أسلوب من الأساليب الخاطئة التي تخالف منهج السلف، وحتى نشأ للدعوة في العالم الإسلامي علم يشبه علم الكلام لدى الجماعات في ارتباطه بالأهواء والأشخاص، لا بارتباطه بالسنة وبالأئمة.

وقد برزت في الآونة الأخيرة نتيجة لهذا الفصل بين الدعاة والعلماء دعوات كبرى قوامها وركائزها رؤساء ليسوا بعلماء وتعتمد على أفكار وحركات محدثة تخالف هدي الإسلام وعلى عواطف لا تضبطها القواعد الشرعية ولا المصالح المعتبرة.

كما نتج عن هذا التقصير في طلب العلم الشرعي على أصوله وعلى مناهجه السليمة الصحيحة بل ونتج من ذلك عند أصحاب الدعوات التي تفصل بين العلماء والدعاة الحيلولة بين أتباعها وبين تحصيل العلم من المشايخ. و صرف بعض الدعاة لأتباعهم عن العلماء بذرائع شتى حتى أن بعضهم قد يعاقب الشاب الذي ينتمي إليه لماذا جلس يطلب العلم الشرعي على الشيخ فلان!!

ونتج الخلل في المفهوم فقد فهم بعض الدعاة - هداهم الله - بسبب العزلة بينهم وبين المشايخ أن المشايخ خصوم أو أعداء للدعوة أو أن لديهم ما يضر بالمنتسب للدعوة أو ما يشوش أفكاره عليها. وسبب ذلك أن في دعواتهم أمراضاً ومصائب لا يرضاها العلماء وقد ينتقدونها ومن هنا تعللوا بصرف شبابهم عن العلماء وأهل العلم والفقه في الدين.

في بعض الدعوات التي تسلك هذا المسلك ظهرت فئات من الجماعات والدعاة والشباب في البلاد الإسلامية وغيرها عددها ليس بالقليل، تجد قادتهم على قلة في الفقه وضعف في العلم أو تتلمذوا على الأقل علماً واتخذوا شيوخهم من الأصاغر، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك حيث قال: (إنَّ من أشراطِ الساعةِ أنْ يُلتمسَ العلمُ عند الأصاغرِ) [1]، وهذا - والله أعلم - يشمل الأصاغر في العلم والقدر والسن. وكل ذلك حاصل في هؤلاء ومنهم طائفة يتخذون شيوخهم كتبهم وما يرشحونه من كتب فكرية أو ثقافية وأغلب ما

---

[1] صحيح الجامع (٢٢٠٧).

تعتمد هذه الجماعات على الكتب الفكرية والثقافية أكثر من الكتب الشرعية بل فيهم من يتنكر لكتب السلف الصالح، ومنهم من جعلوا قادتهم – مع الأسف – جهالهم وأحكامهم أهواءهم، مما أدى إلى الخلط وإلى الخبط والاضطراب عند بعض هؤلاء في العقائد وفي الأحكام، وفي المواقف، وفي التعامل مع الآَخرين، وفي النظرة إلى قضايا الأمة الكبرى، وفي التصرفات الطائشة التي تحدث من بعضهم، وفي صدور الأحكام المتعجلة، وبعد ظهور تلك النتائج رأينا الحكومات عادت لتقول بعدما رأت التخبط هيا لتحسين الخطاب الديني وما هذا إلا مكر جديد والله المستعان.

وما كان عطاء ربك محظوراً

أيها القارئ الكريم بعد أن أوقفتك على عطاء الخلق وموقفهم من الدعوة والدعاة رأيت أن أوضح لك عطاء الخالق وتقديره للدعاة.

✍ فمن فضل الله على دعاة الحق: أن جعل لهم جزاء دعوتهم إلى الخير جزاءاً موفوراً، وهذا الجزاء يجعل الدعاة يتحملون المشقة والمتاعب والمشاكل الاجتماعية والفوارق المعيشية وسخرية الناس فى سبيل توصيل دعوة الله جل جلاله إلى الخلق، والجزاء الذى أعده الله تعالى للدعاة منصوص عليه بوحيٍ معصوم فالله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. [١]

يقول العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله فى معناها: [٢]

"لا أحد أحسن قولاً منه لكونه دعا إلى الله وأرشد إليه وعمل بما يدعوا به يعنى دعا إلى الحق وعمل به وأنكر الباطل وحذر منه وتركه ومع ذلك صرح بما هو عليه ولم يخجل بل قال بكل فخر إننى من المسلمين قالها مغتبطاً فرحاً بما من الله به عليه وليس كمن يستنكف عن ذلك ويكره أن ينطق بأنه مسلم أو بأنه يدعوا إلى الإسلام لمراعاة فلان أو مجاملته ولا حول ولا قوة إلا بالله، فالمؤمن القوى الإيمان الداعي إلى الإسلام البصير بأمر ربه لا يستنكف بل يصرح بالحق وينشط فى الدعوة إلى الله ويعمل بما يدعوا إليه ومن أبعد الناس عن كل ما ينهى عنه ومن هذا حاله فلا يوجد على الأرض أحسن منه ألم أقل إنه فضل الله يؤتيه من يشاء".

---

[١] سورة فصلت (٣٣).

[٢] مجلة البحوث الإسلامية.

✍ وأيضاً من فضل الله على الداعي: أن جعل له من الأجر كأجور من أرشدهم وبين لهم، ولذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا). [١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فقال: (ما عندى ما أعطيكه ولكن ائت فلاناً). فأتى الرجل فأعطاه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ أَوْ عَامِلِهِ). [٢]

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: (فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ). [٣]

✍ ومن فضل الله على الدعاة: أن الله يجرى له الثواب بعد موته، وفى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مِمَّا يلحقُ المؤمنَ من عملِهِ وحسناتِه بعدَ موتِه عِلمًا علَّمَه ونشرَه). [٤]

وعن أبى قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيرُ ما يخلِّفُ الرَّجُلُ من بعدِه ثلاثٌ ولدٌ صالِحٌ يدعو لَه وصَدَقةٌ تجري يبلغُهُ أجرُها وعِلمٌ يُعمَلُ بِهِ من بعدِهِ). [٥]

---

[١] مسلم عن أبي هريرة (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، وانظر الصحيحة (٨٦٥).

[٢] رواه ابن حبان في صحيحه والبزار مختصراً صحيح الترغيب للألباني (١١١).

[٣] البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

[٤] صحيح سنن ابن ماجه (رقم ٢٠٠).

[٥] صحيح سنن ابن ماجه (رقم ١٩٩).

وعن أبى أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أربعةٌ تجري عليهم أجورُهم بعد الموتِ: من ماتَ مرابطًا في سبيلِ الله، ومن علَّم علمًا أُجريَ له عملُه ما عُمِلَ به، ومن تصدَّق بصدقةٍ فأجرها يجري له ما وجدتْ، ورجلٌ ترك ولدًا صالحًا فهو يدعو له). [1]

[1] حسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم ٨٧٧).

أساليب الدعوة

مما مضى فى مجموع الأحاديث يتضح لك أيها الأخ الكريم فضل الله على الدعاة وأن الدعاة تجرى عليهم أجورهم وأجور من اهتدوا بسببهم إلى يوم القيامة ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾. [١]

ولما كان فضل الله على الدعاة عظيماً رأيت أن أوضح الكيفية التى ينبغى للداعي أن يتكيف بها وهو ما يسمى بأساليب الدعوة وما أَبين أساليب الدعوة لو تأملت آيات القرآن العظيم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم فالله جل جلاله يقول: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾. [٢]

فالآية اجتمعت الدعوة التى تحلى بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وبعد توضيح الأساليب إجمالاً نوضحها بشيء من التفاصيل.

أولاً: الحكمة

تعريف الحكمة فى اللغة: تستعمل بمعنى العدل، والحلم، والعلم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل [٣]، وتستعمل بمعنى إصابة الحق بالعلم، والعقل، فالحكمة من الله تعالى هى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية من الأحكام،

---

[١] سورة يونس (٥٨).

[٢] سورة النحل (١٢٥).

[٣] القاموس المحيط.

والحكمة من الإنسان هى معرفة الموجودات وفعل الخيرات وهذا هو ما وُصُفَ به لقمان فى قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَـٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾.[1]

- فمن فسر الحكمة بالعدل: فهو مبنى على أن العدل يمنع من الظلم.
- ومن فسر الحكمة بالحلم: فهو مبنى على أن الحلم يمنع من الوقوع فى الغضب.
- ومن فسر الحكمة بالعلم: فهو مبنى على أن العلم يمنع من الجهل.
- ومن فسر الحكمة بالنبوة: فهو مبنى على أن النبي يمنع من بُعِثَ إليهم من عبادة غير الله.
- ومن فسر الحكمة بأنها كلام من الله من قرآن وإنجيل وتوراة: فهو مبنى على أن كلام الله يمنع من الوقوع فى المنكرات.
- ومن فسر الحكمة بالعقل: فهو مبنى على أن العقل يمنع الخلط بين الأشياء.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه، ولهذا دخل فيه معنى المنع".[2]

ولها استعمالات أخرى من أرادها فليقرأ فى مادة حكم من هذه الكتب.[3]

---

[1] سورة لقمان (١٢).

[2] مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (٢/ ٧).

[3] لسان العرب لابن منظور – القاموس المحيط – المصباح المنير – مقاييس اللغة – تاج العروس – النهاية في غريب الحديث – مختار الصحاح.

تعريف الحكمة اصطلاحاً: هى الإصابة فى الأقوال والأفعال ووضع كل شيء فى موضعه [1]، وقال أبوبكر بن دريد: "كل كلمة وعظتك وزجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة وحكم". [2]

فالحكمة هى الأدلة المقنعة الواضحة التى تكشف الحقائق وتدحض الأباطيل فهى كلمة تمنع من سمعها من المضى فى الباطل وتدعوه إلى الأخذ بالحق والتأثر به ويقف عند الحد الذى حده الله عز وجل.

فعلى الداعية إلى الله أن يبدأ بالحكمة حتى يكون على سبيل الأنبياء وأن يكون بصيراً بأسلوب دعوته فلا يعجل ولا يعنف وليصطحب العفو عن فظاظة من يدعوهم وجفائهم فيعظهم بالترغيب تارة والترهيب تارة لأنه بدعوته يعالج أمراضهم فحرى بالمعالج أن يكون متحلياً بحسن الخلق فى معاملته للمرضى حتى يدخل الأمل فى نفوس المرضى فيتسبب فى شفائهم، أما لو كان المعالج عجولاً وغير حليم ومغتراً بنفسه فإنه سيعامل المرضى معاملةً خاليةً من الحكمة ومن ثم يشعر المريض باليأس فكما أن حكمة الطبيب لابد منها فكذلك حكمة الدعاة أوكد فكلاهما يعالج أمراضاً غير أن الدعاة يعالجون أمراضاً معنوية.

ولو تأملت فى واقع الدعاة لرأيت فئة فقدت الحكمة فى دعوتها لذلك تسبب فقد الحكمة في اضطرابات كثيرة ولعل أشهرها ما حدث من إحراق فتح البارى لأن ابن حجر وقع فى تأويل بعض الصفات، وإحراق مسلم بشرح النووى كذلك لأن النووى وقع فى تأويل وإحراق فى ظلال القرآن للشيخ "سيد قطب" لإدعاء أنه قال بوحدة الوجود، وغير هذا كثير وكل هذا نتاج فقد الحكمة فى الدعوة فتأمل.

---

[1] الحكمة في الدعوة إلى الله رسالة ماجستير تأليف سعيد بن علي بن وهب القحطاني (ص ٢٧).

[2] شرح النووي على مسلم (ج ١ / ص ٣٠٩) كتاب الإيمان – باب تفاضل أهل الإيمان – ط دار الحديث.

فمن حكمة الداعي أن يخاطب الناس على قدر عقولهم وأحوالهم وعقائدهم وأوضاعهم وليس من الحكمة أن يخاطب المسلم فى توجيهه وإرشاده وحثه على الالتزام والتمسك بدينه كما يخاطب الملحد أو الوثني أو اليهودى أو النصرانى وعلى من يدعوا أن يعلم أن الدعوة للمسلمين تختلف فى الأسلوب باختلاف أحوال الناس.

والحكمة هى معرفة الحق والعمل به فالقلوب التى لها فهم وقصد تدعي بالحكمة فيبين لهم الحق علماً وعملاً فتقبله وتعمل به، والقلوب التى تعرف الحق لكن لها أهواء تصدها عن إتباعه فهذه تدعي بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب والترهيب وضرب المثال وهذا ما سنخوضه بشيء من التفصيل.

ثانياً: الموعظة الحسنة

تعريف الموعظة فى اللغة: قال ابن منظور: وعَظَ الوعظُ والعظة والموعظة النصح والتذكير بالعواقب. وقال ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب.

وفى الحديث: (لأجعلنك عظة) أي: موعظة وعبرة لغيرك والهاء فيه عوض من الواو المحذوفة، وفى التنزيل ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [1] لم يجئ بعلامة التأنيث لأنه غير حقيقى أو لأن الموعظة فى معنى الوعظ حتى كأنه قال: فمن جاءه وعظ من ربه وقد وعظه وعظاً وعظة واتعظ هو قَبِلَ الموعظة حين يذكر الخبر ونحوه.

وفى الحديث: (وعلى رأس الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم) يعنى حججه التى تنهاه عن الدخول فيما منعه الله منه وحرمه عليه والبصائر التى جعلها فيه.

---

[1] سورة البقرة (٢٧٥).

وفى الحديث أيضاً: (يأتى على الناس زمان يستحل فيه الربا بالبيع والقتل بالموعظة)، قال: هو أن يقتل البرئ ليتعظ به المريب كما قال الحجاج فى خطبته: "وأقتل البرئ بالسقيم".

ويقال: السعيد من وُعظ بغيره والشقى من اتعظ به غيره [1]، ويقال: "الوعظ النصح والتذكير بالعواقب وقد وعظه من باب وعد وعِظَةً أيضاً بالكسر فاتعظ أى قبل المَوعِظَة". [2]

الموعظة اصطلاحاً: هى الأمر والنهى المقرون بالترجيه والتخويف والتلطف وعرض الحق الصادر عن علم وصواب بدين دون تعنيف ومخاشنة [3]، وهى الأدب الجميل كما قال أبو الفرج بن الجوزى. [4]

وهى المقالة المشتملة على المواعظ الحسنة التى يستحسنها السامع وتكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها. [5]

يقول "سيد قطب رحمه الله": الموعظة التى تدخل القلوب برفق وتتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ولا يفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية فإن الرفق يهدى القلوب الشاردة والقلوب النافرة ويأتى بخير من الزجروالتأنيب والتوبيخ. [6]

---

[1] لسان العرب (٧/ ٤٦٦).
[2] مختار الصحاح (١/ ٣٠٣).
[3] المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٢) بتصرف.
[4] زاد الميسر (٤/ ١٢٦).
[5] فتح القدير (٣/ ٢٨١).
[6] في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٠٢).

وبعد تعريف الموعظة نبين ما ينبغي للدعاة معرفته وهو أن يكون وعظه للناس على نوعين هما:

١. وعظ التعليم.

٢. وعظ التأديب.

أولاً وعظ التعليم: هو أن يعنى ببيان المعتقد الصحيح وبيان الأحكام الشرعية وهذا عن طريق الدروس المنهجية مع مراعاة ما يناسب كل طبقة من المدعوين فى الحث على الفعل والتمسك بهدى النبي صلى الله عليه وسلم والتحذير من الإفراط والتفريط وألا يجعل وعظه سرداً خالياً من المشوقات بل يستخدم وسائل التأثير والإغراء.

ثانياً وعظ التأديب: هو أن يعنى بتحديد الأخلاق الحسنة مع بيان أثرها فى المجتمع وبيان نفعها يوم القيامة مع الحث على التأدب بها وترجمتها إلى واقع يُعاش وعلى الدعاة أن يحذروا الناس من الأخلاق السيئة والإتصاف بها وبيان عاقبة أهلها مع استخدام نصوص الكتاب والسنة وآثار الصحابة فى الترغيب والترهيب.

وبعد الكلام عن الموعظة وما يتطلب من الدعاة نبين أن الحكمة والموعظة يدعي بها من قبلَ الحق أما من لم يقبلْ الحق فإنه يدعي بأسلوب آخر وهو الجدال وهذا ما سنوضحه إن شاء الله.

الجدال فى اللغة: قال ابن منظور: والجدل اللدد فى الخصومة والقدرة عليها وقد جادله مجادلة وجدالاً ورجل جدل ومجادل ومجدال شديد الجدل ويقال جادلت الرجل فجدلته جدلاً أى غلبته، ورجل جدلٌ إذا كان أقوى فى الخصام وجادله أى خاصمه مجادلة وجدالاً والاسم الجدل وهو شدة الخصومة.[1]

---

[1] لسان العرب (ج ١١ ص ١٠٥).

وفى الحديث: (ما أوتى الجدل قوم إلا ضلوا) والجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة المناظرة والمخاصمة والمراد به فى الحديث السابق الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لا إظهار الحق فإن ذلك محمود لقوله عز وجل: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾. [1]

ويقال: إنه لجدل إذا كان شديد الخصام، وإنه لمجدول وقد جادل، وسورة المجادلة سورة قد سمع الله، لقوله عز وجل: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. [2]

وهما يتجادلان فى ذلك الأمر وقوله تعالى ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾. [3]

قال أبو إسحاق: قالوا معناه: "لا ينبغى للرجل أن يجادل أخاه فيخرجه إلى ما لا ينبغي".

الجدال اصطلاحاً:

- هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة. [4]
- هو الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلب. [5]
- هو المعارضة والمناقضة لرأى الغير. [6]

---

[1] سورة النحل (١٢٥).
[2] سورة المجادلة (١).
[3] سورة البقرة (١٩٧).
[4] مفردات القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق صفوان عدنان داودى دار القلم دمشق.
[5] مفردات القرآن.
[6] فتح القدير للشوكاني.

- هو الخصام والمدافعة.[١]
- هو الإلزام والإفحام.[٢]

والقرآن الكريم مشتمل على هذا كله، ولهذا إذا جادل يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية التى لا يمكن أن يجحدها أحد لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل كما فى مثل قول الله جل جلاله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.[٥]

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.[٦]

---

[١] المحرر الوجيز لابن عطية العلمية (ج ٣ ص ٥٢٤).

[٢] تفسير الفخر الرازي (٢٠/ ١٤٢).

[٣] سورة الطور (٣٥).

[٤] سورة ق (١٥).

[٥] سورة يس (٨١).

[٦] سورة القيامة (٣٦ – ٤٠).

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾. [١]

والأمثال لذلك كثيرة يخاطبهم الله فيها باستفهام التقرير المتضمن إقراره واعترافه بالمقدمات البرهانية الدالة على المطلوب وهذا هو الجدال بالتى هى أحسن. [٢]

وبعد الكلام عن الجدال يجب أن تعلم أن الآية التى تتضمن الأساليب هى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. [٣]

اختلف العلماء هل هى محكمة أم منسوخة فمن قائل بأن الآية محكمة فى أولها ومنسوخة فى آخرها حيث إن آخر السورة فيها الجدال مع غير المسلمين والأمر فى آخر السورة الأمر بمجاهدة غير المسلمين ومقاتلتهم لذلك قال جماعة منهم ابن حزم: بأنها منسوخة بآية السيف. [٤]

وقال الإمام جمال الدين أبوالفرج الجوزى: " ذهب جماعة إلى نسخها بآية السيف وفيه بعد لأن الجدال لا ينافى القتال ولم يقل اقتصر على جدالهم ". [٥]

وإلى هذا نميل والله أعلم.

---

١ سورة الواقعة (٥٨ – ٥٩).

٢ مجموعة الفتاوى (١٩/ ١٦٥).

٣ سورة النحل (١٢٥).

٤ ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البارزي تحقيق الدكتور صالح الضامن (ص ٣٨).

٥ المصفى بأكف أهل الرسوخ لابن الجوزي تحقيق الدكتور صالح الضامن (ص ٤٢).

فواجب على الدعاة أن يعرفوا أنه لا يكفى الإخلاص فى الدعوة إلا بإتباع طريقة النبي صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾. [1]

فالداعي المتقن هو الذى يعرف مداخل الناس ويقف على حقيقتهم ولذا يقول محمد بن المنكدر: "العالم بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل عليهم". [2]

---

[1] سورة يوسف (١٠٨).

[2] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢١٦) تحقيق أبي الأشبال.

مهمة الدعاة

يجب على الدعاة أن يوضحوا للناس أن الإسلام دين لكل زمان ومكان وأن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عالمية والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [1]، ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾. [2]

والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾. [3]

ويوضحوا أن أصل كل رسالة عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [4]، فهذه الآية هى جماع رسالة الأنبياء وهى مهمة مجئ الدعاة حيث إنها تعنى إنقاذ الثقلين بإخراجهم من براثن الطواغيت إلى عبادة رب العالمين جل جلاله.

ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [5]، ولقد انساب معنى هذه الآية على لسان أحد الدعاة العظماء وهو الصحابى الجليل "ربعى بن عامر" رضي

---

[1] سورة الأنبياء (١٠٧).

[2] سورة سبأ (٢٨).

[3] سورة الشورى (٧).

[4] سورة النحل (٣٦)، والطاغوت هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو مطاع أو متبوع، فطاغوت كل قوم من يتاحكمون إليه غير الله ورسوله.

[5] سورة الأنبياء (٢٥).

الله عنه يوم أن واجه رستم قائد الفرس فسأله رستم قائلاً: "ما الذى جاء بكم؟" فقال ربعى رضي الله عنه: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

من خلال ما مضى اتضح للقارئ أن مهمة الدعاة هى إعادة بعث دين الله من جديد وليس بعث التيارات والجبهات فقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.[2]

وسبيل الله هو الإسلام وهو الصراط المستقيم وهو دين الله الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وهو ما دل عليه القرآن العظيم والسنة المطهرة، وعلى هذا فمهمة الدعاة هى توضيح الإسلام جملةً وتفصيلاً ويدخل تحت هذا المعنى أمور كثيرة منها:

الدعوة إلى صحة العقيدة، والدعوة إلى أركان الإسلام، والدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله بكل معانيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأخذ بما شرع الله فى الطهارة والصلاة والمعاملات والنكاح والطلاق والجنايات والنفقات والحرب والسلم وغير هذا.

فدين الإسلام دين شامل يشمل جميع مصالح العباد فى المعاش والمعاد ويشمل كلما يحتاج إليه الناس فى أمر دينهم ودنياهم ويدعوا إلى مكارم الأخلاق وينهى عن سفاسفها وسيء الأعمال.

---

[1] سورة الشورى (١٣).

[2] سورة النحل (١٢٥).

فالإسلام عبادة وقيادة ومن ثم يكون المسلم عابداً وللجيش قائداً، والإسلام عبادة وحكم فيكون المسلم عابداً مصلياً صائماً وبشرع الله حاكماً منفذاً لأحكامه عز وجل، والإسلام عبادة وجهاد فيدعوا المسلم إلى الله ويجاهد فى سبيل كل من خرج عن دين الله، والإسلام مصحف وسيف فالمسلم يتأمل القرآن ويتدبره وينفذ أحكامه بالقوة ولو دعت الحاجة إلى السيف.

والإسلام سياسة واجتماع فهو يدعوا إلى الأخوة الإيمانية والجمع بين المسلمين والتآلف بينهم عن طريق الأخلاق الحسنة فأنعم بها من سياسة صالحة حكمة تجمع ولا تفرق وتؤلف ولا تباعد تدعوا إلى صفاء القلوب واحترام أخوة الدين.

والإسلام يدعوا إلى الأمانة والحكم بالشريعة السماوية وترك الإحتكام إلى القوانين الوضعية، والإسلام سياسة واقتصاد فكما أنه سياسة وعبادة وجهاد فهو يدعوا إلى الاقتصاد المعتدل حيث لا افراط ولا تفريط فالإسلام ليس رأسمالياً غاشماً لا يبالى بالحرمات،الغاية عنده تدير الوسيلة.

والإقتصاد فى الإسلام ليس شيوعياً إلحادياً لا يحترم الملكية الخاصة وإنما الإقتصاد فى الإسلام شرعى معتدل، فالإسلام جاء بحفظ المال وحث على اكتسابه من السبل الشرعية البعيدة عن الظلم والربا، وجاء الإسلام باحترام الملكية الخاصة فأباح المال ودعا إلى اكتسابه بالطرق الحكيمة من غير أن يتلهى صاحبه عن طاعة الله وعما أوجبه الله عليه من حقوق مالية.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.[1]

---

[1] سورة النساء (٢٩).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، مالُه، وعِرضُه، ودمُه)[١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَأَنْ يَأْخُذَ أحدُكُمْ حَبْلَهُ فيَأْتِيَ الجَبَلَ، فيَجِيءَ بِحِزْمَةِ الحَطَبِ على ظَهْرِهِ، فيَبِيعَها، فيَكُفَّ اللهُ بِها وجْهَهُ، خَيرٌ لهُ من أن يَسألَ الناسَ، أعْطَوْهُ، أوْ مَنَعُوهُ).[٢]

وسئل صلى الله عليه وسلم أى الكسب أفضل؟ قال: (بيعٌ مبرورٌ، وعملُ الرجلِ بيدِه).[٣]

فإذا ما تأملت ما مضى من نصوص يتأكد لك أن نظام المال فى الإسلام لا مثيل له أبداً، والإسلام نصيحة واحترام فلا غل ولا غش ولا حقد ولا حسد ولا خيانة ولا غير هذا من سيء الخلق.

ومن دعا إلى الإسلام جملة وتفصيلا أثمرت دعوته لأن هذا هو أمر الله جل جلاله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾.[٤]

جاء فى تفسير بن أبى حاتم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ يقول: "ادخلوا فى شرائع دين محمد صلى الله عليه وسلم ولا تدعوا منها شيئاً"[٥]، وجاء

---

[١] صحيح الجامع (٤٥٠٩).

[٢] صحيح الجامع (٥٠٤١).

[٣] صحيح الجامع (١١٢٦).

[٤] سورة البقرة (٢٠٨).

[٥] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/ ٣٧٠).

في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "أي عمله". [1]

والآن إخوتى الكرام يتضح لكم عمل الشيطان وتلبيسه على بعض الدعاة عندما يقسمون الدين إلى لب وقشور فيدعون إلى بعض الدين ويعرضون عن بعضه وهذا هو عمل الشيطان فاليوم قسموا الدين وغداً يلبس الشيطان بسب الدين كما حدث من أناس محسوبين على الدعاة قد وقعت منهم جهالات تدلل على سوء منهجهم وتمكن الشيطان منهم.

وكما حدث من بعض الدعاة بأقلامهم فمن قائل بقول الدهريين وهو قدم العالم كما ادعى مؤلف كتاب "أبى آدم" بأن آدم ليس أول البشر وهذا معتقد الدهريين والمسألة ليست بالهينة [2]، وللأسف الذين ردوا على الكتاب لم يفطنوا إلى أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد الدهريين كما ذكر صاحب كتاب "الفرق بين الفرق" والمطلع على الصحف تجدها كل يوم تخرج على الناس بالترهات والفتاوى المهلكات والتشكيك في المعتقدات، ولا نملك بعد التنبيه إلا الاسترجاع على واقع المسلمين فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ماذا أقول وواقعٌ مرٌ لنا   جرح القلوب بسنه أدماها

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/ ٣٧٠).

[2] انظر كتاب الفرق بين الفرق (٣١٩).

باتت رقاب المسلمين رخيصة   بهجرهم سنن الرسول وتركهم إياها

ماذا أقول إذا القريض شجانى   يا أمة الإسلام والقرآن

أأقول جاوزنا السماء معزة   أم أننا فى ذلة وهوان

مجالات الدعوة

اعلم أيها القارئ العزيز أن للدعوة مجالات عديدة يجب أن يستفاد منها كلها حتى يعم النفع وهي كالآتي:

١- مجال التعليم

فالتعليم مجال من مجالات الدعوة سواء كان على نظام الحلق فى المساجد أو على نظام الفصول الدراسية، لذا يجب أن يكون المدرس داعياً إلى الله بالقول والعمل والقدوة الحسنة ولا يقتصر على إلقاء الدرس فقط، فمن المعلوم أن الطالب يحاكى مدرسه لتأثره به.

فعلى المدرسين أن يستغلوا محاكاة الطلاب لهم فيقودوهم إلى الخير ويزودوهم بالأخلاق الحسنة ويجنبونهم الشر والأخلاق السيئة، وهذا بفضل الله متوفر عند فئة من المدرسين ونسأل الله تعالى أن يوفق الفئة الباقية إلى تنفيذ حق الإسلام عليهم وهو الدعوة إلى سبيله.

٢- إمامة المسجد وخطبة الجمعة

وهما مجال واسع ومتكرر يومياً بحكم صلوات الجماعة، وأسبوعياً بحكم صلاة الجمعة، وإن الإمام ليستطيع من خلال الصلوات الخمس أن يوجه وينبه ويدعوا إلى الله على بصيرة، وكذلك الخطيب من خلال خطبة الجمعة يستطيع أن يقدم الإرشادات والتوجيهات ولا ريب فى أن غالب التعليمات النبوية إلى الصحابة كانت عقب الصلوات الخمس أو الجمعة، فلو استغل الأئمة والخطباء هذا المجال استغلالاً حسناً لكانت ثمرته طيبة جداً حيث إن الناس حالة وجودهم فى المسجد تكون مطمئنة قلوبهم ويتطلعون إلى التوجيه والتعليم.

ولما كانت الإمامة والخطابة من أوسع مجالات الدعوة لزم أن يكون كل من الإمام والخطيب على مستوى طيب من العلم والرغبة فى الدعوة والتوجيه، وأن يتخذ كل من الإمام والخطيب الدعوة كرسالة ولا يتخذاها كوظيفة لينفع الله بهما الخلائق، وعلى هذا يجب أن يرشح للإمامة والخطابة أفضل العناصر وأطيب المستويات ولا يكون العكس ولعلك أخى القارئ عقلت ما أريد.

٣- الدوائر الحكومية والأعمال الوظيفية

فيجب على كل مدير عمل فى أى مكان أن يسهم فى الدعوة إلى الله تعالى فى محيط دائرته فيوجه من يحتاج إلى توجيه فى دينه ويتفقدهم عند حضور الصلاة ويناقش من يتخلف عن صلاة الجماعة وأن يقدم لهم الإرشادات بتجنب الغيبة والنميمة والحقد الوظيفى، وهذا كله لابد أن يكون من المدير والمسئول لأنه راعى وكل راع مسئول عن رعيته كما جاء فى الحديث المتفق عليه.

ولا يقتصر التوجيه على رئيس العمل ولكن يتعدى إلى كل موظف مع زملائه أو مع مديره فيقوم بإسداء النصح لحديث (الدين النصيحة . الدين النصيحة . الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم). [1]

والمؤمن يجب أن يكون انتهازياً فطناً فى مجال الدعوة فكلما سنحت فرصة للتوجيه انتهزها وكلما حدثت مناسبة فى أى موطن تكلم وآيات القرآن توضح هذا، فمثلاً: عندما قص الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قصة يوسف الصديق عليه السلام وبين أن يوسف عليه السلام قد سُجن ذكر أن يوسف استغل فرصة وجوده

---

[1] (حم م د ن) عن تميم الداري (ت ن) عن أبي هريرة (حم) عن ابن عباس صحيح انظر حديث (١٦١٠) صحيح الجامع.

في السجن فدعا السجناء إلى عبادة الله تعالى ونبذة عبادة الأصنام ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.[1]

ألا فليعقل هذا أولوا الألباب.

٤- التجمعات العامة وأماكنها

كفريضة الحج فإنها فريضة عظيمة يجتمع من أجلها المسلمون من جميع الأقطار في مكان واحد وهذا لو عقلناه لوفرنا على الدعاة وقتاً وجهداً بإتاحة الفرصة لهم فى أن يلتقوا بأكبر عدد ممكن، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتى الحجيج فى منازلهم فيعرض عليهم دعوته وكان يلقى خطبة فى عرفات وأيام التشريق يوجه من خلالها إلى ما يريد.

فليت الدعاة يعقلون هذا ويقتحمون التجمعات العامة فى المساجد والمدارس والجامعات والأندية والأسواق والجنائز فيوجهون ويرشدون ولا يتقوقعون فى دائرةٍ قطرها من المسجد للبيت فإن التقوقع يعود على الدعوة والداعي بالسلب، ولا شك أن لكل تجمع جمهوراً خاصاً والتعامل مع الجمهور على اختلاف أذواقه وأفهامه يزيد الدعاة خبرةً دعوية وقدرة على تطويع الكلام وحسن الاستدلال ومن ثم يعم النفع، ومن الخطأ أن يقول

---

[1] سورة يوسف (٣٩ – ٤٠).

الداع بيتى ومسجدى فليست الدعوة حبيسة المساجد ويوم أن تكون لا يتم المقصود إذ ليس الداعي وقفا على فئة بل لكل الفئات.

٥- الصحافة والإعلام بأقسامه

لا يشكُ عاقل فى دور هذه الأجهزة الخطيرة ولذا يجب أن تُستغل استغلالاً طيباً فى نشر الدعوة وتوصيلها إلى كل مكان وتصل إلى كل بيت وتصاحب المسافر والسائر فى الطريق وغير هؤلاء، لذا يجب على القائمين على هذه الأجهزة أن يتقوا الله فيها فيسخروها لخدمة الدين فلا ينشر إلا ما يعود بالمصلحة على الإسلام وأهله فإنهم مسئولون يوم القيامة عن كل حرف يخط فى الصحف وعن كل كلمة أُذيعت فى برنامج وعن كل صورة أظهرتها الشاشة، لذا يجب أن تظهر بصمة الإعلام فى الدول الإسلامية فى الدعوة إلى الله تعالى وترك الفساد.

٦- التأليف وتسجيل المحاضرات

أولاً: يجب أن ترتفع همة المؤلفين حتى تثرى المكتبة الإسلامية ونرجوا أن تكون همتهم فى التأليف تبليغ الرسالة التى يصلون عن طريقها إلى الله تعالى ولا يكون التأليف من أجل استنزاف أموال الناس.

ثانياً: على دور النشر أن تتقى الله تعالى فى مهمتها ورسالتها وتراقب الله تعالى فى أسعار الكتب والأشرطة بأنواعها مسموعة ومرئية ومن ثم يتيسر لطالب العلم طلبه للعلم وحيث إننا نذكر المؤلفين وأصحاب دور النشر بما يجب عليهم تجاه هذه الرسالة نقول إن هناك بعض دور النشر وبعض المؤلفين لا يرقبون فى طالب العلم إلاً ولا ذمة فتجدهم يرفعون سعر الكتاب لدرجة أن طالب العلم بحاله الراهن يعجز عن شراء ما يريد وبينما نحن كمسلمين هكذا تجد فى الوجه الآخر أن الكتب الماجنة والمروجة للفكر الساقط تكاد أن تكون بلا ثمن وكل هذا يؤدى إلى كثرة الفساد وانتشار الجهل وهذا بسبب الانحراف عن منهج التأليف والطبع.

٧- البعثات الدراسية والدبلوماسية

لا شك أن الابتعاث إلى الخارج من أهم مجالات الدعوة لذا يجب أن تصطفى الدول الإسلامية مبعوثيها فيكونوا من أحفظ الناس لدينهم وشرائعه ومن أقدرهم على إظهار شعائره فى بلاد الكفر، حيث إن المبتعثين من قبلنا يمثلون ديننا وأمتنا فلا بد أن يكونوا دعاةً صادقين لدينهم وأمتهم حتى يستدل من يسمعهم أو يراهم على سماحة الإسلام حيث إن الناس ينظرون إلى الدعاة ويعتبرون ما يصدر عنهم هو التطبيق العلمى للإسلام.

ألا فليتق الله من يقوم على ترشيح البعثات وليختار أكفأ الدعاة وليلقوا بالمحاباة جانباً فليس هذا مكانها وبهذا نكون قد انتهينا من ذكر مجالات الدعوة وبعد هذا سنبين الهدف من الدعوة.

الهدف من الدعوة

إذا أردت أن تقف على الهدف من الدعوة فانظر فى الحكمة التى أرسل الله من أجلها رسله تجد أن الله جل جلاله أرسل الرسل ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمة الشك إلى نور اليقين، فإذا تم إخراج الناس من الظلمات إلى النور فقد تم إخراجهم من غضب الله إلى رضا الله ورحمته فبناءً على ما تبين يتضح لك أن الهدف من الدعوة هو إخراج الناس من غضب الله إلى رحمته ورضوانه وإنقاذ الناس من النار لينعموا بجنة الله فأنعم به من هدف ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.[1]

---

[1] سورة البقرة (٢٥٧).

صفات الدعاة

لما كانت الدعوة إلى الله تعالى منصباً جليلاً ومقاماً رفيعاً ومشرفاً كبيراً كان من الواجب أن لا يتقدم للقيام بهذا الشرف إلا من توفرت فيه صفات تؤهله لهذا المقام ومن هذه الصفات:

١- العلم بالدعوة

يلزم كل من يعمل فى أى عمل أن يكون على علم بحقيقة عمله حتى لا يجنى على نفسه بكثرة الخطأ إذا كان هذا حتمياً فى الأعمال الدنيوية البحتة فما بالك بالعمل فى الدعوة وهو أوجب الأعمال وأشرفها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.[1]

فعلى من يعمل بالدعوة أن يكون على علم بدعوته حتى لا يضلل غيره وسيد الدعاة وإمامهم كلفه الله بأن يعلن للناس ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]، والبصيرة هى العلم.

فيلزم الدعاة أن يكونوا على علم بما هو مشروع وبغير المشروع حتى يستطيعوا التمييزبين السنة والبدعة وبين الحسنة والسيئة والحلال والحرام وأن يعرفوا التوحيد الحق حتى يميزوا بينه وبين الشرك والكفر والفسوق والعصيان، فإذا علم من يدعوا إلى الله تعالى بحقيقة عمله استطاع أن يعامل الجماهير حسب ما عندهم من الخلل، وجملة القول فإن الداع يحتاج إلى العلم حتى يستطيع عن طريق العلم إقناع المعارض وإفحام المناظر

---

[1] سورة فصلت (٣٣).

[2] سورة يوسف (١٠٨).

ودحض الشبهة والله تعالى يقول: ﴿وَجَـٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [١]، فكيف يجادل إذا كان يجهل حقيقة الجدال؟!

ولعلك أيها القارئ الكريم تذكر ما سبق من القول حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرسل رسله إلى البلدان بعد تعليمهم وتدريبهم، وضربنا فيما سبق مثالاً بمصعب بن عمير رضي الله عنه وعلى غرار إرسال النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضي الله عنه تم إرسال معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن بعد تعليمه ويتضح هذا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: (إِنَّكَ تأتي قومًا أَهلَ كتابٍ) [٢]، فنبهه النبي صلى الله عليه وسلم إلى حقيقة هامة ليتهيأ معاذ إلى مناظرتهم وليعد الإجابة الصائبة على أسئلتهم إن سألوه وناظروه.

فلا مناص من العلم بالدعوة، فالجاهل لا يصلح أن يكون داعياً لأنه يهدم ولا يبنى ويفسد ولا يصلح ويقف عند أدنى شبهة وينقطع عند أدنى خصومة ومن ثم لا يحصل المقصود من دعوته بقدر ما يترتب على دعوته من مشاكل لا حصر لها، فلا بد من الوعي والفهم الصحيح بحيث يكون الدعاة على بينة من الأمر وبدون العلم تفقد الدعوة صلابتها.

---

[١] سورة النحل (١٢٥).

[٢] صحيح أبي داود ١٥٨٤.

٢- العمل بالدعوة

إضافةً إلى العلم بما يدعوا إليه يجب على الداعي أن يعمل بما يدعوا إليه بأن يكون قدوة صالحة لأن الناس ينظرون إلى عمله قبل أن يستمعوا إلى حديثه فإن كان حسن العمل أثرت دعوته فى الناس وآتت ثمارها، فالعالم الحقيقى من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنة وإن كان قليل العلم. [١]

واعلم أيها الأخ الكريم أن للعلم طغياناً كما أن للمال طغياناً ولا ينجيك من طغيان العلم إلا العمل كما لا ينجيك من طغيان المال إلا الإنفاق فبالعمل تفهم العلم وبالعلم يصح لك العمل وبالعمل تنال الحكمة، ورحم الله "الفضيل بن عياض" حين قال: "لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل بما علم فإذا عمل بما علم كان عالماً". [٢]

والعلم يراد للعمل كما يراد العمل للنجاة فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالم ونعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً وصار فى رقبة صاحبه غلاً، واعلم أن العلم والد والعمل مولود والعلم شجرة والعمل ثمرة فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشاً من العلم ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً فى العمل ولكن اجمع بينهما وإن قل نصيبك منهما وصدق الله حيث قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾. [٣]

واعلم أنك مسئول عن عملك بما علمت كما جاء فى الحديث الشريف الذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزولَ قدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يسألَ عن عُمُرِهِ فيمَ أفناهُ؟ وعن علمِهِ فيمَ فعلَ فيهِ ؟ وعن مالِهِ

---

[١] من كلام الخواص كتاب اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي.

[٢] اقتضاء العلم العمل.

[٣] سورة البقرة (٢٨٢).

مِن أينَ اكتسبَهُ ؟ وفيمَ أنفقَهُ ؟ وعن جسمِهِ فيمَ أبلاهُ؟) [١]، ولما سمع الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملوا به واتضح هذا من كلام أبى الدرداء رضي الله عنه حيث قال: "إنما أخشى من ربى يوم القيامة أن يدعونى على رؤس الخلائق فيقول لى يا عويمر فأقول لبيك رب فيقول ما عملت فى ما علمت؟". [٢]

ولله در من قال:

تعلم العلم واعمل ما استطعت به   لا يلهينك عنه اللهو والجدل

وعلم الناس واقصد نفعهم أبداً   إياك إياك أن يعتادك الملل

وعظ أخاك برفق عند زلته   فالعلم يعطف من يعتاده الزلل

وإن تكن بين قوم لا خلاق لهم   فأمر عليهم بمعروف إذا جهلوا

---

[١] صحيح الترغيب للألباني رحمه الله (١٢٦).

[٢] صحيح الترغيب (١٢٤).

فإن عصوك فراجعهم بلا ضجر   واصبر وصابر ولا يحزنك ما فعلوا

فكل شاة برجليها معلقة   عليك نفسك إن جاروا وإن عدلوا

فاتق الله فى علمك وشمر للعمل به حتى تحظى بالربح الوفير وإياك ومخالفة العلم بالعمل فيؤدى بك إلى المقت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾[1]، واعلم أن العلم الذى لا ينتفع به صاحبه يكون ناراً تحرق فيه كما أخبر بهذا إمام الدعوة وسيدهم وقدوتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (مثلُ الذي يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ ويَنسى نفسَه كمثلِ السراجِ، يضيءُ للناسِ ويحرقُ نفسَه). [2]

ولله در من قال:

وبخت غيرك بالعمى فأفدته   بصراً وأنت محسن لعماكا

---

[1] سورة الصف (٢ – ٣).

[2] صحيح الترغيب (١٣١).

وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتضيء للأعشى وأنت كذاكا

وكذا يقول الشاعر:

كم إلى كم تغدوا إلى طلب العلم مجداً فى جمع ذاك حفياً

طالباً منه كل نوعٍ وفنٍ وغريبٍ ولست تعمل شيئاً

وإذا كان طالب العلم لا يعمل بالعلم كان عبداً شقياً

إنما تنفع العلوم لمن كان بها عاملاً وكان تقياً

واعلم أيها الأخ الكريم أن الله تعالى عاب على علماء بنى إسرائيل عندما خالفوا ما علموه فقال سبحانه: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1]، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾.[2]

والنبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى أن الذى لا يعمل بما علم منافق فقال: (إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عليكُم بعدي، كلُّ منافقٍ عليمُ اللِّسانِ)[3]، ومخالفة العمل للعلم تذهب العلم وتنسيه كما جاء عن الشافعى رحمه الله إن صح ذلك:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظى   فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نور   ونور الله لا يهدى لعاصى

ومخالفة العمل للقول سبب فى عدم قبول المستمع كما قال الشاعر:

---

[1] سورة البقرة (٤٤).

[2] سورة الجمعة (٥).

[3] صحيح الترغيب (١٣٢).

مواعظ الواعظ لن تقبلا　　حتى تعيها نفسه أولاً

يا قوم من أظلم من واعظٍ　　خالف ما قد قاله فى الملا

أظهر بين الناس إحسانه　　وبارز الرحمن لما خلا

فالويل كل الويل لمن لم يوفر القدوة الحسنة، الويل كل الويل لعلماء السوء الذين يأمرون ولا يأتمرون وينهون ولا ينتهون ويقولون ما لا يعملون الويل لهم الويل لهم كما قال أبو الدرواء رضى الله عنه: "ويل للذى لا يعلم مرة وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات" [1]، وكيف لا يكون لهم الويل وقد فتنوا الناس وأضلوهم وكيف لا يكون لهم الويل والنبي صلى الله عليه وسلم قال كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه: (مررت ليلةً أسرى بى بأقوامٍ تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال خطباء أمتك الذى يقولون ما لا يفعلون) [2]، وكيف لا يكون لهم الويل وهم يأتون يوم القيامة يدورون فى النار كما يدور الحمار برحاه. [3]

---

[1] أخلاق العلماء للآجري.

[2] البخاري ومسلم واللفظ لمسلم.

[3] متفق عليه: البخاري (بدء الخلق رقم ٣٢٦٧)، ومسلم (الزهد رقم ٢٩٨٩).

وأخيراً أقول إن العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، فاللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلبٍ لا يخشع ومن نفسٍ لا تشفع ومن دعوة لا يستجاب لها [1]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: " كونوا للعِلمِ رعاةٍ فإنَّهُ قد يرعَوي ولا يُروَى وقد يُروَى ولا يرعَوي". أى لا يثبت ولا يستقر، وقال عيسى بن مريم عليه السلام: (ليس بنافعك أن تعلم ما لا تعمل إنّ كثرة العلم لا يزيدك إلا جهلاً إذا لم تعمل به)، وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: (إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا). [2]

٣- الإخلاص

على الدعاة أن يوفوا الإخلاص فى دعوتهم ولا يريدوا بها رياءاً ولا سمعة ولا مدحاً من الناس ولا إظهاراً لنفسه، فمن أراد شيئاً مما مضى من الرياء وما صاحبه فمصيره إلى الدمار والنار، والنبي صلى الله عليه وسلم خوف أصحابه من تعلم العلم لغير الله تعالى ومن جملة أحاديثه صلى الله عليه وسلم في هذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تعلَّم علمًا مما يبتغى به وجهَ اللهِ تعالى، لا يتعلَّمُه إلا ليُصيبَ به عرضًا من الدنيا لم يجِدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامةِ. يعني ريحَها) [3]، وما رواه كعب بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من طلب العلمَ ليُجاري العلماءَ، أو ليُماري به السفهاءَ، أو يصرفُ به وجوهَ الناسِ إليه أدخله اللهُ في النارِ). [4]

---

[1] مسلم والترمذي عن زيد بن أرقم.

[2] كتاب الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب لأبي منصور الثعالبي (ص ١٥٠).

[3] أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم والحديث صححه الألباني كما في الترغيب والترهيب.

[4] صحيح الجامع ٦٣٨٣ وهو حديث حسن.

وإخلاص الداعِ فى دعوته يستلزم أن يريد بدعوته إظهار دين الله تعالى وإعلاء كلمته ونفع المدعوِّين وهدايتهم إلى الخير عملاً بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [١]، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: "فى هذه الآية التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً منَ الدعاة ولو دعا إلى الحق فهو يدعوا إلى نفسه". يعنى إنه يريد الظهور والمدح منَ الناس وهذا ينافى الإخلاص [٢]، فحتمٌ ولابدَّ أن تكون الدعوة إلى الله تعالى وحدهُ لا إلى غيره.

٤- الحلم

من الأخلاق التى ينبغى أن تتوفر فيمن يدعوا إلى الله تعالى أن يكون حليماً، والحلم فى تعريفه اللغوى: هو الأناة والعقل، وفى تعريفه الإصطلاحى: هو إحتمال الأذى وهذا بضبط النفس والطبع عند الغضب، قال القاضى عياض: "الحلم توتر وثبات أى هو صفة تورث طلب وقارٍ وثبوت وإستقرار عند الأسباب المحركة للغضب".

والحلم طبع وليس تكلفاً والحلم صفة لازمة للدعاة الأول وهم الأنبياء والمرسلون فالله تعالى يقول فى حق إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [٣]، ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾. [٤]، فعلى الدعاة عدم التفريط فى الحلم وعدم الإفراط.

---

[١] سورة يوسف (١٠٨).

[٢] مجلة البحوث الإسلامية.

[٣] سورة التوبة (١١٤).

[٤] سورة الصافات (١٠١).

فالتفريط فى الحلم يعطل مسار الدعوة ويؤدى إلى استحكام العداوة والبغضاء وهذا يؤدى إلى الطيش والتهور من بلاء ودمار وشقاء وفقد الحلم يوقد نار الفتنة ويؤدى إلى اضطراب الأمور وينسى عواقب الأمور، وبفقد الحلم تفقد الحكمة وإذا فقدت الحكمة وضعت الأمور فى غير محلها فيعامل المتعلم بمعاملة الجاهل والعكس ولا ينزل الناس منازلهم.

والإفراط فى الحلم يؤدى إلى الجبن فى بعض الأحيان، مثال: إذا حلم على من يعتدى على الدين أو العرض أو المال كان حلمه جبناً وفى الجبن تفريط وتضييع وتقصير، ومن فقد الغضب فى الأشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الإغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس فضيلة الشجاعة والأَنَفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثأر لأنها خصال مركبة من الغضب فإذا عُدمها هان بها ولم يكن لبقاء فضائله فى النفوس قيمة ولا لوفور حلمه وزن، فإذا كان المحلوم عليه لئيماً يزداد شره مع الحلم عليه فالجهل معه أحسن من الحلم لأن الجهل معه سيكون ردعاً له عن الشر والتمادى فيه.

ولله در من قال:

وأنزلنى طول النوى دار غربةٍ   إذا شئت لاقيت الذى لا أشاكله

لك أيها الداعي

فحامقته حتى يقال ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله [1]

وقيل: إن العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه مع الكريم.

لذا يقول أبو الطيب المتنبى:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وقال أيضاً:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

[1] ديوان الشافعي رحمه الله.

وقال أيضاً:

والعفو عند لئيم الطبع منقصة   تطغى ولكنه عند الكريم يدا [1]

وقال الخزيمى:

أرى الحلم فى بعض المواطن ذلةً   وفى بعضها عزاً يُسَوِّدُ صاحبه

وقال محمد بن وهب الحِمْيَرى: [2]

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إننى   إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم   ولى فرس للجهل بالجهل مسرج

[1] أمثال أبي الطيب المتنبي التي جمعها الصاحب بن عباد لفخر الدولة بن بويه.

[2] من شعراء الدولة العباسية توفي سنة ٢٢٥ هـ انظر الأعلام للزركلي (ج ٧ ص ١٣٤).

فمن رام تقويمى فإنى مقوم ومن رام تعويجى فإنى معوج

وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحباً ولكننى أرضى به حين أخرج

ألا ربما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنة مخرج

وإن قال بعض الناس فيه سماجة فقد صدقوا والذل بالحر أسمج [1]

ويقول آخر:

إذا كنت بين الحلم والجهل ناشئاً وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

---

[1] من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ (ج ١ ص ٤٠٤) طبعة العلمية.

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً   ولم يرضَ منك الحلم فالجهل أمثل

ويلزم الداع أن يكون وسطاً فى صفاته فلا هو متهوِّر ولا هو جبان بل هو شجاع فالشجاعة وسط بين التهوِّر والجبن والوسيط فى صفاته ينتفع الناس بعلمه ومجاله، فهو بحلمه يستطيع أن ينظر إلى كل أمر من الأمور نظراً صادقاً ويقدره تقديراً صحيحاً ويزنه بميزان عادل فلا يستخفه الغضب والطيش فيدفعه إلى المخاطرة ويسوقه إلى ما لا تحمد عقباه، وبحلمه يستطيع أن يتبين مواضع المرض فى المجتمع فيعالجها بما يناسبها، وبحلمه يتمكن من مناقشة الحقائق العلمية التى عن طريقها يتعرف على الخطأ من الصواب والحق من الباطل.

وللحلم أسباب كثيرة تبعث على ضبط النفس واتزانها منها:

١. الرحمة بالجهال: فبرحمة الجهال يأمن الدعاة من استحداث البغضاء والقطيعة.

٢. القدرة على الإنتقام والإنتصاف: وهذا من سعة الصدر وحسن الثقة بالله تعالى وفى هذا يقول بعض البلغاء: "أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر".

٣. الترفع عن السباب: وهذا من شرف النفس وعلو الهمة ولذا قال الحكماء: "شرف النفس أن تتحمل المكاره".

٤. من أسباب الحلم الاستهانة بالمسيء: وفى هذا يقول الشاعر:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

سكتُ عن السفيه فظن أني عييت عن الجواب وما عييت

٥. الإستحياء من جزاء الجواب وعاقبته: وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة كما قال بعض الشعراء:

إنى لأعرض عن أشياء أسمعها حتى يقول رجال إن بى حمقاً

أخشى جواب سفيهٍ لا حياءَ له فسْلٍ [1] وظَن أُناسٍ أنه صدقا [2]

٦. التفضل على الساب: وهذا يكون من الكرم وحب التآلف وفى هذا يقول الشاعر:

---

[1] فسلٍ أي لا خير منه.

[2] من كتاب عيون الأخبار لابن فتية (ج ١ ص ٣٩٩) طبعة العلمية.

إذا كان دونى من بليت بجهله　　أبيت لنفسى أن أقابل بالجهل

وإن كان مثلى فى محلٍ من العلا　　هويتُ إذا حلماً وصفحاً عن الجهل

وإن كنت أدنى منه فى الفضلُ والحجا　　رأيت له حق العلاوة والفضل

٧. من أسباب الحلم إستكفاف الساب وقطع السباب صيانة للعرض: وهذا من جودة العقل، ولله در من قال:

قالوا سَكَتَّ وقد خُوصمت قلت لهم　　إن الجواب لباب الشر مفتاحُ

فالصمت عن جاهلٍ أو أحمقٍ شرفٌ　　أيضاً وفيه يصَون العِرض إصلاحُ

أما ترى الأسد تُخشى وهى صامتـة   والكلب لا يخشى لعمرى وهو نباح [١]

وتعرض رجلٌ أحمقٌ لأحد العقلاء الحكماء وأسمعه كلاماً غليظاً وأفحش فى القول فتحلم عنه وتركه ينوع سبه ولم يجبه بشيء فقيل: لماذا لا تجبه؟ فقال: أرأيت لو عضك حمار أو رمحك أكنت تعضه أو ترمحه. قال: لا. قال: أرأيت لو نبح عليك كلب أو عضك أكنت تنبح عليه أو تعضه. قال: لا. قال: فإن الجهول السفيه إما يكون كالحمار أو كالكلب لأنه ما يخل من جهل وأذى وشر وكثيراً ما يجتمعان فيه فالبعد عنه غنيمة. [٢]

ولذا يقول الشاعر:

إذا فاه السفيه بسبِّ عرضى   كرهت بأن أكون له مجيباَ

يزيد سفاهةً وأزيد حلماً   كعود زادهُ الإحراقُ طيباَ [٣]

---

[١] ديوان الإمام الشافعي رحمه الله.

[٢] موارد الظمآن لدروس الزمان (ج ٣ ص ١٤).

[٣] موارد الظمآن لدروس الزمان (ج ٣ ص ١٤).

٨. من أسباب الحلم الكيد والمكر وتوقع الفرص الخفية: وهذا من الدهاء، فكما أنَّ الحلم يكون تارةً حياءً وتارةً خوفاً من عقوبة وتارةً وفاءً بعهد كذلك يكون دهاءً ومكراً فأحياناً يحلم الرجل على غيره من أجل أن يوقعه فى الخطأ، ولذا يقول بعض الحكماء: "إذا سكتَّ عن الجاهل فقد أوسعته جواباً وأوجعته عقاباً".

وقال إياس بن قتادة في هذا:

تعاقبُ أيدينَا ويحلمُ رأينَا ونشتِمُ بالأفعال لاَ بالتَّكلُّمِ [1]

فيا أخى إذا أردت أن تعرف حلم شخص فأغضبه فلا يعرف الحليمُ إلا ساعة الغضب كما قال لقمان لولده:

من يدَّعى الحلمَ أَغضِبهُ لتعرفَهُ لا يُعرَفُ الحلمُ إلاَّ ساعةَ الغضَبِ

وممَّا سبق لا يخفى أثرُ الحلمِ بكلِّ أسبابه فى نماءِ الدَّعوة إلى اللهَّ فعلى من أراد أن يدعُ إلى الله تعالى أن يضمِّن أخلاقَه خُلُقَ الحلم فالنبي صلى الله عليه وسلم كان أحلمَ الناس وكان لا يغضب لنفسه أبداً ولا يغضب إلاَّ إذا انتهكت حرمات الله وهذا هو الحلم الحقيقى فكن واسع الصدر فى حقِّ نفسك شديدَ الغيرةِ على حدودِ ربك.

---

[1] عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري (ج ١ ص ٤٠٠) طبعة العلمية.

٥- صفة الصبر

الصبر على التبليغ وما يترتب عليه ولقد أوصى الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر الذى أوصى به إخوانه من المرسلين فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [1]، ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [2]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾. [3]

وقوله تعالى: ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أى من أهم الأمور التى ينبغى التصميم والعزم عليها فهى مفروضة وواجبة.

ومن وصايا القرآن وصية لقمان لولده بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحمل ما يترتب على الأمر والنهى، فقال الله تعالى مخبراً ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾. [4]

ولما أمُر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر صبر ومن صبره صلى الله عليه وسلم صبرُه على مقاسات قريش وأذى الجاهلية ودام على مصابرته للشدائد حتى أظفره الله تعالى عليهم فإذا كان إمام الدعوة وقدوتهم قد أمر

---

[1] سورة الأحقاف (٣٥).

[2] سورة النحل (١٢٧).

[3] سورة الشورى (٤٣).

[4] سورة لقمان (١٧).

بالصبر فصبر وتحقق له جزاء صبره فى الدنيا وهو الظفر على خصومه، ففى هذا الدليل أن الدعاة إذا أرادوا أن ينتصروا على خصومهم فلا عليهم إلا أن يصبروا على ما يلاقونه من صعاب وأذى ويقتدوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ولله در من قال فى عاقبة الصبر:

اصبر على مضَضِ الأدلاجِ فى السَّحرِ　　وفى الـرَّوْحِ إلى الطاعات فى البَكَرِ

إنىِّ رأيتُ وفى الأيامِ تجَربةٌ　　للصَّبرِ عاقبةً محمودةٌ الأثـَرِ

وقلَّ من جَدَّ فى أمرٍ يُؤمِّلُهُ　　واستصحَب الصَّبرُ إلا فازَ بالظَّفَرِ

فضل الصبر

إعلم أيها الأخ الكريم أن للصبرِ فضلاً عظيماً فالصبر أفضل الإيمان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضلُ الإيمانِ الصَّبرُ و السَّماحةُ) [1]، والصبر أوسع الأرزاق كما ورد فى الحديث المتفق عليه: (ما يكونُ عِندِي من خيرٍ، فلَنْ أدَّخِرَهُ عنكمْ، وإنَّهُ مَنْ يَستعِفّ يُعِفَّهُ اللهُ، ومَنْ يَستغْنِ يُغنِه اللهُ، ومَنْ يَتصبَّرْ يُصبِّرْهُ اللهُ، وما أُعطِيَ

[1] (فر) عن معقل بن يسار (تخ) عن عمر الليثي. صحيح انظر حديث رقم ١٠٩٧ في صحيح الجامع.

أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسَعَ من الصبْرِ)[١]، وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه عند الحاكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما رُزِقَ عبدٌ خيرًا له ولا أوسعَ منَ الصبرِ).[٢]

وبالصبر تحُسَّن الخاتمة كما رُوِىَ فى مسند الشاميين: (إنَّ الفتنةَ تُرْسَلُ، ويُرْسَلُ معها الهَوَى والصَّبْرُ، فمَنِ اتبع الهَوَى كانت قِتْلَتُهُ سَوْدَاءَ، ومَنِ اتبع الصَّبْرَ كانت قِتْلَتُهُ بيضاءَ).[٣]، وبالصبر تُجلَبُ المعيَّة والله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.[٤]

وما تمت كلمة ربك على بنى إسرائيل إلا بصبرهم على الإقامة فى دولة فرعون، والله تعالى يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[٥]، ومن فضل الصبر أن الله يكافئ عليه أعظم مكافأة، لذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[٦]

---

[١] (حم ق) عن أبي سعيد. صحيح انظر حديث رقم ٥٨١٩ في صحيح الجامع.

[٢] صحيح انظر حديث رقم ٥٦٢٦ في صحيح الجامع.

[٣] ٢/ ٤٤٤ الحديث في ضعيف الجامع ١٥١٤ ورواه الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري.

[٤] سورة البقرة (١٥٣).

[٥] سورة الأعراف (١٣٧).

[٦] سورة الزمر (١٠).

وإذا كان هذا شأن الصبر والصابرين كان من الواجب على من يعمل فى حقل الدعوة إلى الله أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ويحمد الله تعالى ويعلم أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج، ولله در من قال:

وإذا مسَّك الزمان بِضَر　　　عَظُمتَ دونهَ الخَطُوب وجلَّت

وأتَتْ بعَدَهُ نوائبُ أُخَرى　　　سئمتْ نفسك الحياة وملَّت

فاصبر وانتظر بلوغ الأمانى　　　فالرزايا إذا توالت تولَّت

وإذا أوهنت قواك وجلت　　　كشفت عنك جملة وتخلت

وقال محمد بن بشر الخارجى:

إن الأمور إذا اشتدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتجا

لا تيأسن وإن طالت مطالبه ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبرِ أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا [1]

وقال زهير بن أبى سلمى مبيناً أن الصبر يكون فى أمور ويعز ويقل فى أمور، لأن الصبر لا يتحمله كل الناس:

ثلاث يعز الصبر عند حلولها ... ويذهل عنها عقل كل لبيب

خروج اضطرار من بلاد يحبها ... وفرقة إخوان وفقد حبيب

[1] أدب الدين والدنيا للماوردي، كما جاء في الحديث الشريف (والصبر ضياء) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري. كتاب الطهارة باب فضل الوضوء رقم ٢٢٣ ورواه أحمد رقم ٢٢٨٠٠.

وقال ابن نباته:

صبراً على نوب الزمان وإن أبى القلب الجريح

فلكل شيء آخر إما جميل أو قبيح

وقال آخر:

الدهر أدبني والصبر رباني والفوت أقنعني واليأس أغناني

وحنكتي من الأيام تجربة حتى نهيت الذى قد كان ينهاني [1]

---

[1] المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهى.

وينبغى أن يكون الصبر عند الدعاة طبيعة لا تكلفاً حتى يؤجروا عليه وعلى الدعاة أن لا يجزعوا ورضى الله عن علي بن أبى طالب حيث قال للأشعث بن قيس: "إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور".

واعلم أيها الأخ الكريم أنَّهُ بالصَّبرِ يرتفع القدر ولك هذه المناظرة بين الماء والزيت:

إذا صُبَّ فى القنديل ماءٌ ثم صبَّ عليه زيتٌ صعد الزيت فوق الماء، فيقول الماء: أنا ربَّيتُ شجرتك فأين الأدبُ؟ لم ترتفع عليَّ؟ فيقول الزيت: أنت فى رضراض الأنهار تجرى على طريقة السلامة وأنا صبرت على العصر وطحن الرحا وبالصبر يرتفع القدرُ. فيقولُ الماءُ: إلا أنّى أنا الأصلُ. فيقولُ الزَّيتُ: أُسترُ عَيْبَكَ فإنَّكَ لَوْ قارنتَ إنطفأ المصباح.[1]

وقال أبو تمام فى قصيدة مدح فيها مالك بن طوق ويعزيه عن أخيه القاسم بن طوق:

وقال على فى التعازى لأشعث — وخاف عليه بعض تلك المآثم

أتصبر للبلوى عزاءً وحسبة — فتؤجرا وتسلوا سُلُوَّ البهائم[2]

---

[1] رهبان الليل للعفاني (ص ٢٩٠).

[2] أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٣٥٤).

وليعلم الدعاة أن فقد الصبر عندهم لا يثمر ويكون من يفقد الصبر مثل الطبيب المريض، ولك ما قاله أبو العتاهية:

أراك إمرأً ترجوا من الله عفوه   وأنـت على ما لا يحب مقيم

تدل على التقوى وأنت مقصر   فيا من يداوى الناس وهو سقيم [١]

فالصبر الصبر يا معشر الدعاة حتى تنادوا فى القيامة بالسلام: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾. [٢]

ولله در من قال:

والصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته   لكن عواقبه أحلى من العسل [٣]

---

[١] أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٣٥٣).

[٢] سورة الرعد (٢٣ – ٢٤).

[٣] من كتاب عدة الصابرين لابن القيم.

٦- الثبات على المبدأ

ما أحوجنا كدعاةٍ إلى هذه الصفة أمام مُغرِياتِ الحياة خاصةً ونحنُ فى زمنٍ تَموجُ فيه الفتن فقد تُعرضُ على الداعي عرُوضاً مُغريةً كمنصبٍ مثلاً أوْ غيرِه لِئلاَّ يتكلم عنْ موضُوعٍ مـا أوْ لِيُفْتىَ فى مسألةٍ ما، وهذا ما حدث فى العقدِ الأخير منَ القرنِ العشرين كالتَّساهل فى أمر البنوك والختان وغيره مما نص عليه مؤتمر السكان وما يسمَّى بمُحاورة الأديان ولا شكَّ أن من وقع فى هذا الشرَك مفتونٌ مفتونٌ مفتونٌ لأنَّه أفتى بما يوافقُ هوى صاحب المنصب ولك ما قاله الرسول: (مَنْ بدَا جفَا ، ومنِ اتبَعَ الصيدَ غفَلَ ، ومَنْ أَتَى أبوابَ السلطانِ افتُتِنَ).

[1]

فعلى الدعاةِ ألا يُفتنوا بمباهج الدنيا ولْيتقلَّدُوا بسيِّد الدعاة وإمامهم حينما خرج إلى الناس ليقول لهم: (أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) فعرض عليه أهل مكة ما يُغرى من مالٍ وجاهٍ ومُلكٍ فما كان منه إلا أن قال بكلِّ ثباتٍ: (ما أنا بأقدرَ على أن أدعَ لكم ذلك، على أن تُشعلوا لي منها شُعلةً يعني الشمسَ) [2]، وإنَّك لتعجبُ أشد العجب من دعاةٍ كانت كلماتهم كالصواعق المرسلة فى بداية أمرهم فلما وصلوا إلى المناصب صارت كلماتهم ألْيَن من الطين وأشدُّ مرارةً من الحنظل.

وقد حدث أن بعض الْمُتَسَلِّقين كان ينادى بلسانه وقلمه لتطبيق الشريعة ولَمَّا جلس على كرسى الوزارة سكت وليته اكتفى بالسكوت بل صار حرباً على من ينادون بتطبيق الشريعة ووافق السلاطين على قولهم إن تطبيق الشريعة غير ملائم لهذا العصر وصار يجرى أمامهم فى كل المناسبات، وحدث كذلك من داعٍ آخر كانت خطبه

---

[1] (طب) عن ابن عباس. تحقيق الألباني صحيح انظر حديث رقم ٦١٢٤ في صحيح الجامع.

[2] السلسلة الصحيحة حديث رقم ٩٢، أما الحديث المشهور على ألسنة الدعاة والخطباء (والله يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني ....) فلا يصح، وقد نص العلامة الألباني على ضعفه في الضعيفة برقم ٩٠٩.

نارية فلما وصل إلى البرلمان سكت ونام وكان يطمع أن يقع فى خبر عسى ولكنِ الحقُ غلبه يوما فنطق به فأوقعوه فى خبر كان فصار لسانُ حاله يقول ليتنى ما لزمتُ أبوابَ السلطان وليتنى ثبتُّ كما ثبت النبي العدنان صلى الله عليه وسلم بعدها دعا ربَّه أن يعيدَه إلى خبر عسى ولايبقيه فى خبر كان ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾.[١]

رأيت أخى الكريم الفتن التى التاط بها بعض الدعاة فالحذر الحذر من أبواب السلاطين ومما افتتن به غيركم ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[٢]، فكن أيها الأخ الكريم صاحب مبدأ ولاتعبأ بإغراءات شياطين الإنس والجن فاللهُ وعدكَ بالرفعة ووعد الله لايُخلَف أبداً ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾.[٣]

٧- أن يتحلى الدعاة بـ لا أدرى وهذا من العلم

فإنه لا يتجاسر على الفتوى إلا قليل العلم وخُلق لا أدرى تحلت به الملائكة كما جاء واضحاً فى سورة البقرة فى الحديث عن قصة خلق آدم ويقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.[٤]

---

[١] سورة التوبة (١٠٢).

[٢] سورة الأعراف (٢٧).

[٣] سورة المجادلة (١١).

[٤] سورة البقرة (٣١ – ٣٢).

وكذلك تخلق بها سيد الدعاة وإمامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواطن منها ما رواه بن عمر رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله أى البقاع خير؟ فقال: (لا أدرى؟) فقال:يا رسول الله أى البقاع شر؟ فقال: (لا أدرى؟) فقال:سل ربك فأتاه جبريل عليه السلام فقال: (يا جبريل أى البقاع خير؟) قال جبريل: لا أدرى؟ فقال: (أى البقاع شر؟) فقال: لا أدرى؟ فقال: (سل ربك) فانتفض جبريل انتفاضةً كاد يصعق منها النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما أسأله عن شيء. فقال الله عز وجل لجبريل: سألك محمد أى البقاع خير؟ فقلت: لا أدرى. وسألك أى البقاع شر؟ فقلت: لا أدرى ؟ فأخبره أن خير البقاع المساجد وأن شر البقاع الأسواق) [١]، ويشهد لهذا الحديث ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أَحَبُّ البِلَادِ إلى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ البِلَادِ إلى اللهِ أَسْوَاقُهَا). [٢]

ومن الأمور التى قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم لا أدرى عندما سئل عنها ما جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أدري أَتُبَّعُ أَنبيًّا كان أم لا؟ و ما أَدري ذا القَرنينِ أَنبيًّا كانَ أم لا؟ و ما أدري الحُدودُ كفَّاراتٌ لأهلِها أم لا؟) [٣]، ولما أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا وعلمه الله ما لم يكن يعلم قال لأصحابه: (لا تسُبُّوا تُبَّعًا، فإنَّهُ كان قدْ أسلَمَ). [٤]

وقال صلى الله عليه وسلم فى شأن الحدود وأنها كفارة فى الحديث الذى جاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَالَ، وحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِن أصْحَابِهِ: (بَايِعُونِي علَى أنْ لا تُشْرِكُوا باللهِ

[١] صحيح ابن حبان رقم (١٥٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٧١).
[٢] (مسلم في المساجد ٦٧١ والبزار ٤٠٨ وابن خزيمة ١٢٩٣ وأبوعوانه ١/ ٣٩٠).
[٣] صحيح الجامع (رقم ٥٥٢٤ ورقم ٧٣١٩).
[٤] صحيح الجامع (رقم ٧٣١٩).

شيئًا، ولَا تَسْرِقُوا، ولَا تَزْنُوا، ولَا تَقْتُلُوا أوْلَادَكُمْ، ولَا تَأْتُوا ببُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بيْنَ أيْدِيكُمْ وأَرْجُلِكُمْ، ولَا تَعْصُوا في مَعروفٍ، فمَن وفَى مِنكُم فأجْرُهُ علَى اللَّهِ، ومَن أصَابَ مِن ذلكَ شيئًا فَعُوقِبَ في الدُّنْيَا فَهو كَفَّارَةٌ له، ومَن أصَابَ مِن ذلكَ شيئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهو إلى اللَّهِ، إنْ شَاءَ عَفَا عنْه وإنْ شَاءَ عَاقَبَهُ). [1]

ولما سمع الصحابة الكرام من الرسول صلى الله عليه وسلم لا أدرى تقلدوا به والآثار فى هذا كثيرة منها:

ما رواه محمد بن سيرين رحمه الله قال: لم يكن أحدٌ بعد النبي صلى الله عليه وسلم أهيب لما لا يعلم من أبى بكر رضي الله عنه ولم يكن أحدٌ بعد أبى بكر رضي الله عنه أهيب لما لا يعلم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإن أبا بكر رضي الله عنه نزلت به قضية فلم يجد فى كتاب الله منها أصلاً ولا فى السنة أثراً، فاجتهد رأيه ثم قال: "هذا رأيى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمنِّى وأستغفر الله". [2]

وعن مسْروق قال: بينما رجلٌ يحدثُ فى كِنده فقال: يجيء دخانٌ يوم القيامة فيأخذُ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذُ المؤمنُ كهيئةِ الزكام ففزعنا فأتيتُ ابن مسعودٍ رضي الله عنه وكان متكئاً فغضِبَ فجلس فقال:"من علمَ فليقل ومن لمْ يعلمْ فليقلْ اللهُ أعلم، فإنَّ من العلم أن يقولَ لما لا يعلم لا أعلم" [3]، وقد قال اللهُ تعالى لنبِيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾. [4]

---

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان رقم ١٧.

[2] جامع بيان العلم وفضله تحقيق أبي الأشبال الزهيري ٢/ ٨٣٠.

[3] فتح الباري (٨/ ٣٧٠).

[4] سورة ص (٨٦).

وقال عبدالله بنُ عمْرو بن العاص رضى الله عنهما: "من سئلَ عما لا يدرى فقال لا أدرِى فقد أحرزَ نصفَ العلم" [1]، وسأل إبراهيم النَّخعى عامراً الشعبي عن مسألةٍ فقال: لا أدرى. فقال: "هذا واللهِ العالمُ سئلَ عمَّا لا يدرى فقال: لا أدرى" [2]، وقال مالكُ بنُ أنس: "إذا ترك العالمُ لا أدرى أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه". [3]

وليعلم الدعاةُ أنَّ الله سائِلُهُم عن قولهم بغيرِ علم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾. [4]

٨- العفة

من الصفات التى ينبغى توفرها فى الدعاة العفة وعدم طرق أبواب السلاطين إلا لنصح يسديه الداعي لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدِّينُ النصيحةُ) [5]، أما إن كان طرق أبواب السلاطين للمجالسة والتفكه ونقل الحديث فإن هذا إقرار لهم على ما هم عليه من ظلم الناس وهذا الأمر من الفتن المتلاطمة فى أيامنا وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: (من سكن الباديةَ جَفا، ومن اتَّبعَ الصَّيدَ غفَل، ومن أتى السلطانَ افتُتِنَ)

---

[1] العقد الفريد ٢/ ٥٨.

[2] العقد الفريد ٢/ ٥٨.

[3] العقد الفريد ٢/ ٥٨.

[4] سورة الإسراء (٣٦).

[5] صحيح الجامع (٣٤١٧).

(١)، ويقول كذلك صلى الله عليه وسلم: (سيكونُ أمراءٌ تعرِفونَ و تُنكِرونَ، فمَنْ نابَذَهمْ نَجَا، ومَنْ اعتزَلَهم سلِّمَ، ومَنْ خالَطَهم هَلَكَ). (٢)

واعلموا معشر الدعاة أن مجالسة السلاطين بلا نصح لهم ينقص من الدين، ورضى الله عن ابن مسعود حينما قال: "إن على أبواب السلطان فتناً كمبارك الإبل والذى نفسى بيده لا تصيبوا من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله أو قال مثليه" (٣)، ورضى الله عن حذيفة بن اليمان حينما قال: "إياكم ومواقف الفتن قيل وما مواقف الفتن يا أبا عبدالله؟ قال أبواب الأُمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول له ما ليس فيه". (٤)

ويُروى أنَّهُ كان فى عصر عبد الله بن المبارك رجلٌ ذو عِلم افتُتِنَ بالأُمراء فاستعملوه على الصدقات "هو إسماعيل بن عُليَّه وكان فى عصر هارون الرشيد" فكتب إلى عبد الله بن المبارك يستمدُّه برجالٍ منَ القرَّاء يعينونه على ذلك، فكتب إليه بن المبارك ينصحه:

يا جاعل العلمِ لهُ بازِياً   يصطادُ أموال المساكين

---

١ صحيح الجامع (٦٢٩٦).

٢ صحيح الجامع (٣٦٦١).

٣ مصنف عبدالرزاق رقم ٢٠٦٤٤ والعزلة لابن الحيان البستي ١٣٤ والطبراني من حديث عبدالله بن الحارث.

٤ مصنف عبدالرزاق ٢٠٦٤٣ وذكره ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٣٩.

احتلت للدُّنيا ولذَّاتها بحيلةٍ تذهب بالدين

فصِرتَ مجنوناً بها بعدما كنت دواءً للمجانين

أين رِواياتك فيما مضى عنِ ابن عونٍ وابنِ سيرين

ودرسُكَ العلم بِآثارهِ وتَركُكَ أبوابِ السَّلاطين

تقولُ أُكْرِهتُ فما حيلَتى زَلَّ حمارُ العِلم فى الطِّين

لاتَبِع الدِّينَ بالدُّنيا كما يفعَلُ ضُلاَّلُ الرَّهَّابِين [1]

---

[1] سير أعلام النبلاء ٨/ ٤١٢.

خوف العلماء

لَمَّا وصَلَت الرسالة ابن عُلَيَّة ووقف على ما فيها قام مِنْ مجلس القضاء فوطِيءَ بساط هارون الرشيد رحمه الله وقال: "يا أمير المؤمنين اللهَ اللهَ ارحم شيبْتِى فإنِّى لا أصبر للخطأ". فقال له هارونُ الرشيد: لعلَّ بنَ المُبارك أغْرَى عليك. فقال ابنُ عُلَيَّة: "اللهَ اللهَ أنقذني أنقذَكَ الله فأعفاه هارونُ الرَّشيدُ من القضاء". [1]

هكذا شأن الأتقياء إذا زلَّت أقدامهم ثم ذُكِّروا بالله جل جلاله والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [2]، أما السَّادرون الذين لا يتذكرون المفتونون بالأُمراء ما هم إلا طلاَّب دنيا وطلاَّب الدنيا وحدها لاحظَّ لهم فى رحمة الله ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾. [3]

والدعاة المفتونون بالأمراء يوشون فى الدعاة المجدِّين ويسعون إلى السلطان فى حق النابهين، ولعلَّ التلفزيون المصري أذاع فى برنامج بعنوان (ماسبيرو) حلقةً عن (الفرق بين الداعية والواعظ) وهذه الحلقة ما هى إلاَّ وِشَايةٌ وسِعَايَةٌ بالفساد من دعاة المناصب والسُّفور (الذين صرف الله عنهم قلوب الناس) فى حقِّ المجدِّين النَّابهين منَ الدعاة وطلاّب العلم (الذين صرف الله إليهم قلوب الناس فأحبوهم ووثقوا فى علمهم).

هكذا حال أبناء الدنيا وطلاَّبها إذا أحسُّوا بالْتِفَاتِ الناس عنهم وانصرافهم إلى غيرهم أكل قلوبهم الحسد فراحوا يوشون إلى السلطة فى حق المخلصين من الدعاة ويصدق فيهم المثل (رمتنى بدائها وانسلَّت) ودعاة

---

[1] كتاب الجهاد لـ عبدالله بن المباك – د/ نزيه حماد.

[2] سورة الأعراف (٢٠١).

[3] سورة البقرة (٢٠٠).

المناصب فى هذا البرنامج ارتضوا من الحاضرات العُرْىَ والخضوع فى القول وما تمعَّرت وجوههم من المجاهرة بالمنكر، ودعاة التبرج والسفور والتملُّق والمناصب لا يجدون عرف الجنَّة يوْم القيامة كما جاء فى الحديث الشريف: (مَنْ تعلَّمَ علْمًا مما يُبْتَغى بِهِ وجْهُ الله ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إلَّا ليصيبَ بِهِ عرَضًا منَ الدنيا، لم يجدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامَةِ). [1]

ولله در الشاعر محمود الوراق حيث قال عن الدعاة طلاب المناصب الدنيوية:

ركبوا المراكب واغتدوا زمراً إلى باب الخليفة

وصلوا البكور إلى الرواح ليبلغوا الرتب الشريفة

حتى إذا ظفروا بها طلبوا من الحال اللطيفة

وغدا المولى منهم فرحاً بما تحوى الصحيفة

---

[1] صحيح الجامع (٦١٥٩).

وتعسفوا من تحتهم ـــ بالظلم والسير العنيفة

خانوا الخليفة عهده ـــ بتعسف الطرق المخوفة

باعوا الأمانة بالخيانة ـــ واشتروا بالأمن خيفة

عقدوا الشحوم واهزلوا ـــ تلك الأمانات السخيفة

ضاقت قبورُ القومِ ـــ واتسعت قصُورهمُ المنيفة

مِنْ كُلِّ ذي أدبٍ ـــ ومعرفــةٍ وآراءٍ حصيفة

مُتَفَقِّهٌ جَمع الحديث إلى قياسِ أبى حنيفة

فأتاكَ يصلُحُ للقضاء بِلحْيةٍ فوق الوظيفة

لم ينتفعْ بالعلمِ إذ شغَفتْهُ دنياه الشَّغُوفة

نسىَ الإلهَ ولاذَ فى الدُّنيــا بأسبابٍ ضعيفة [1]

ولعلَّ أحد الدعاة المجدِّين تحدثه نفسه لماذا تقتصر المناصب على المتملِّقين من الدعاة؟

وإجابةً على هذا أسئلة النفس الأمارة نقول ما قاله الشاعر:

أيها القلب تصبَّرْ واسألِ الله السلامة إنما دنياك زيف فلها اليأس علامة

---

[1] جامع بيان العلم وفضله تحقيق أبي الأشبال الزهيري (١/ ٦٣٨).

كل ما فيها غرور مثل ظفر بل قلامه　　فليفز بالزيف غر لم ترجوه اقتسامه

وليضع　　أمس　　ويوم　　فغداً　　يوم　　القيامة [1]

فصونوا أنفسكم يا دعاة الحق ولا تردوا مواطن الذلة والهوان وتقللوا من الدنيا ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً وإياكم وبذل العلم للمآرب الدنيوية. [2]

استغنوا بدينكم عن دنيا الملوك　　كما استغنا الملوك بدنياهم عن الدين

٩- التواضع

اعلم أيها الأخ العزيز أن من أفضل الأخلاق التى يتحلى بها الدعاة خلق التواضع، والتواضع هو:

- عدم الخضوع للخلق عند الحاجة إليهم.
- وهو: عدم التكبر عليهم عند الاستغناء عنهم.

---

[1] من قصيدة للشيخ محمد على أبو المجد رحمه الله عميد المعهد الديني بقرية ميت العز – فاقوس – شرقية.

[2] كتاب حلية طالب العلم بكر عبدالله أبو زيد بتصرف.

- وهو: ترك الإعجاب بالنفس وما تعلمت.
- وهو: ترك حب الرياسة ابتغاء ما عند الله سبحانه وتعالى.
- وهو: عدم البغي على الآخرين.

ولذا يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: (إن اللهَ عز وجل أوحى إلي أن تواضعوا، ولايبغِ بعضُكم على بعضٍ). [1]

والتواضع بالمعنى الآنف يزيد صاحبه عند الله رفعة وعند الناس كذلك وكفى أن الله تعالى قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [3]، أي وبشر المتواضعين الذين يهبطون من خشية الله ولا يستكبرون عن عبادته ويذلون للمؤمنين وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (وما تَواضَعَ أحَدٌ للهِّ إلَّا رَفَعَهُ اللهُّ). [4]

وكيف لا يكون التواضع محموداً وبه قد أُمِرَ النبي صلى الله عليه وسلم كما فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى السماء ملك ينزل. فقال: يا جبريل هذا

---

[1] صحيح الأدب المفرد للشيخ الألباني رحمه الله رقم ٤٢٦/ ٣٢٩ والصحيحة ٥٧٠.

[2] سورة القصص (٨٣).

[3] سورة الحج (٣٤).

[4] مسلم ٢٥٨٨ والدارمي ١/ ٣٩٦.

الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل قال:يا محمد أرسلنى إليك ربك أفملكا نبياً أجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: (بَل عبدًا رسولاً). [١]

وهكذا فالتواضع خلق الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوات والتسليم وأعلى الأنبياء قدراً هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فلقد بَلغ صلوات الله وسلامه عليه فى التواضع قمته حيث إنه كان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشاة ويجيب دعوة الملوك على خبز الشعير [٢]، وكان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم [٣]، وكان يردف خلفه ويركب الحمار [٤]، وكان يرفع القميص ويلبس الصوف ويقول من رغب عن سنتى فليس منى [٥]، وكان يكثر الذكر ويُقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى له حاجته. [٦]

هذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم وهو إمام الدعاة وجدير بالدعاة أن يقتدوا بإمامهم ونبيهم ورسولهم عليه الصلاة وأزكى السلام وأول من تأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام، ولك بعض النماذج من تواضع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، من المعلوم أن أفضل الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين لذلك سنذكر نماذج من تواضع هؤلاء الأماجد أولاً ثم نذكر نماذج أخرى.

---

[١] رواه أحمد في المسند برقم ٧١٦٠ وهو حديث صحيح كما أشار محقق المسند طبعة الحديث.

[٢] الطبراني عن ابن عباس وهو في الصحيحة رقم ٢١٢٥.

[٣] أحمد عن عائشة وصحيح الجامع رقم ٤٩٣٧.

[٤] الحاكم عن أنس وصحيح الجامع رقم ٤٩٤٥.

[٥] صحيح الجامع ٤٩٤٦ والصحيحة ٢١٣.

[٦] صحيح الجامع ٥٠٠٥.

تواضع الصديق رضي الله عنه

أخرج بن عساكر عن أنيسة قالت.كن جواري الحى يأتين بغنمهن إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه فيقول لهن: "أتحبون أن أحلب إليكن حلب بن عفراء". [١]

وأخرج بن سعد عن عائشة وابن عمر وابن المسيب وغيرهم رضي الله عنهم كان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً تاجراً فكان يغدوا كل يوم السوق فيبيع ويبتاع وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو نفسه فيها وربما كُفيها فرعيت له وكان يحلب للحَيِّ أغنامهم فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى: "الآن لا تحلب لنا منائح دارنا"، فسمعها أبو بكر رضي الله عنه فقال: "بلى لعمرى لأحلبنها لكم وإنى لأرجو أن لا يغَيِّرَنى ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه"، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحى: "يا جارية أتحبين أن أرغى لك أو أصرِّح؟" فربما قالت: أرغ وربما قالت: صرِّح فأى ذلك قالت فعل. [٢]

تواضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أخرج أبى سعد عن أبى عثمان النهدى قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف بالبيت عليه إزاراً فيه إثنتا عشرة رقعة إحداهن بأديمٍ أحمر وفى رواية وهو أمير المؤمنين.

وعن حزام بن هشام عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مَّر على امرأة وهى تعصد عصيدةً لها فقال: "ليس هكذا تعصدين" ثم أخذ المسوط فقال: "هكذا فأراها".

---

[١] تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٩٣).

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد (ج ٣ ص ١٣٨ وما بعدها) طبعة العلمية.

عن السائب بن يزيد قال: رأيت عمر بن الخطاب السنة يصلح أداة الإبل التى يُحَمَلُ عليها فى سبيل الله براذعها وأقتابها فإذا حملَ الرجلُ على البعير جعل معه أداتَه. [١]

تواضع عثمان بن عفان رضي الله عنه

أخرج البيهقى عن مالك عن عمر عن أبيه أنه رأى عمر وعثمان رضي الله عنهما إذا قدما من مكة ينزلان بالمعرس فإذا ركبوا ليدخلوا المدينة لم يبق أحدٌ إلا أردف غلاماً فدخلوا المدينة على ذلك قال: وكان عمر وعثمان يردفان فقلت له: إرادة التواضع؟ قال: نعم والتماس حمل الرجل لئلا يكون كغيرهم من الملوك. [٢]

وأخرج أبو نعيم عن ميمون بن مهران قال: أخبرنى الهمدانى أنه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو على بغلة وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة. [٣]

تواضع علي بن أبى طالب رضي الله عنه

أخرج أحمد بن حنبل قال حدثني شريح بن يونس قال حدثنا على بن هشام عن صالح بياع الأكسية عن أمه أو جدته قالت: رأيت علي بن أبى طالب رضي الله عنه اشترى تمراً بدرهم فحمله فى ملحفة فقالوا: نحمل عنك يا أمير المؤمنين قال: "لا أبو العيال أحق أن يحمل". [٤]

---

[١] الطبقات الكبرى (ج ٣ ص ٢٥٠).

[٢] كنز العمال (ج ٢ ص ١٤٢).

[٣] حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٩٩) طبعة العلمية.

[٤] الزهد لأحمد بن حنبل (ص ١٦٥، ١٦٦) طبعة العلمية.

وأخرج ابن سعد قال أخبرنا وكيع بن الجراح عن سفيان الثورى عن عمرو بن قيس أن علياً رضي الله عنه رُئِيَ عليه إزارٌ مرقوع فقيل له فقال: "يخشع القلب ويقتدى به المؤمن" [1]، وعند أبى نعيم قيل لعلي: يا أمير المؤمنين لم ترقع قميصك؟ قال: "يخشع القلب ويقتدى به المؤمن". [2]

تواضع عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه

عن رجاء بن حيوة قال: سمرت ليلة عند عمر بن عبدالعزيز فاعتل السراج وكاد ينطفئ فقلت: أقوم وأصلحه. فقال عمر: "لا، ليس من الكرم استخدام الضيف". قال: هل أنبه الغلام؟ قال: لا، هو أول نومةٍ ينامها فقام عمر إلى المصباح فأصلحه فقلت: كيف قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: "ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر". [3]

فلقد رأيت أخى الحبيب تواضع النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الأخيار فإذا كنت متأسياً منهم لا بغيرهم تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فَلاح.

واعلم أيها الأخ الحبيب أن تواضع الدعاة هو:

١. أن لا يعارض بمعقول منقولاً ولا يتَّهم للدين دليلاً ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً وأن ينقاد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

[1] الطبقات الكبرى (ج ٣ ص ٢٠) طبعة العلمية.

[2] حلية الأولياء (ج ١ ص ١٢٤) طبعة العلمية.

[3] الرسالة القشيرية (ص ١٤٧) دار الخير.

٢. وأن يتواضع لعظمة ربه سبحانه وتعالى فكلما شمخت نفس الداعي ذكر عظمة الله جل جلاله وتفرُّدَهُ بذلك وغضبَهُ الشديدَ على من نازعهُ ذلك ومن ثم تتواضع نفسه وينكسر لعظمة الله قلبه.

ورضى الله عن ابن مسعود عندما قال: "من تواضع لله تخشعاً رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظماً وضعه الله يوم القيامة" [١]، وبهذا كان يتناصح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا جرير بن عبدالله رضي الله عنه يقول له سلمان الفارسى رضي الله عنه: "يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة". [٢]

واعلم رحمنى الله وإياك أن من التواضع ترك العجب لأن إعجاب الداعي بنفسه مهلك كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قال: (ثلاثٌ مُهلِكاتٌ، و ثلاثٌ مُنْجِياتٌ، فقال: ثلاثٌ مُهلِكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه. وثلاثٌ مُنجِياتٌ: خشيةُ اللهِ في السرِّ و العلانيةِ، والقصدُ في الفقرِ والغِنى، والعدلُ في الغضبِ والرِّضا)، والحديث حسن بطرقه كما قال الشيخ الألبانى رحمه الله. [٣]

فتواضع أيها الأخ الحبيب حتى يحبك الله ومن ثم يكلؤك برعايته ويؤمنك من عذابه ويوصلك إلى جنته ورضوانه.

---

[١] وكيع في الزهد (ج ٢ ص ٤٦٣، ٤٦٧) نقلاً عن الموسوعة المسماة بنضرة النعيم (ج ٤ ص ١٢٦٧).

[٢] وكيع في الزهد (ج ٢ ص ٤٦٣، ٤٦٧) نقلاً عن الموسوعة المسماة بنضرة النعيم (ج ٤ ص ١٢٦٧).

[٣] انظر السلسلة الصحيحة رقم ١٨٠٢.

أقوال مأثورة فى التواضع والعجب

✍ عن مسروق قال: "كفى بالمرءِ علماً أن يخشى الله وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بنفسه". (١)

✍ قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "علامة الجهل ثلاثة.العجب، وكثرة النطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شيء ويأتيه". (٢)

✍ وقال إبراهيم بن الأشعث: "سألت الفضيل بن عياض رحمه الله عن التواضع، فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعه ولو كان أجهل الناس لزمكَ أن تقبله منه". (٣)

✍ وقال يحيى بن معاذ: "التواضع حسن فى كل إنسان لكنه فى الأغنياء أحسن". (٤)

✍ وقال بن عطاء الله السكندرى: "التواضع قبول الحق ممن كان". (٥)

✍ وقال على بن ثابت فى شِعره:

---

[١] سنن الدارمي ١/ ٩٣،١٠٦.

[٢] جامع بيان العلم وفضله.

[٣] جامع بيان العلم وفضله.

[٤] الرسالة القشيرية.

[٥] الرسالة القشيرية.

المال آفته التبذير والنهب   والعلم آفته الإعجاب والغضب [١]

✍ وسئل الحسن عن التواضع فقال: "هو أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا إلا رأيت له الفضل عليك". [٢]

✍ وقال رجل لبكر بن عبدالله علمنى التواضع فقال: "إذا رأيت من هو أكبر منك فقل سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل سبقته إلى الذنوب والعمل السيئ فأنا شر منه". [٣]

✍ إذا كان التواضع مقترناً بالعلم أدى إلى الرفعة والشرف، والشاعر يقول:

وأحسن مقرونين فى عين ناظر   جلالة قدر فى ثياب تواضع [٤]

وانظر ما قاله أبو العتاهية:

---

[١] أخلاق العلماء وأخلاق حملة القرآن للآجري.

[٢] العقد الفريد ٢/ ٢٠٢.

[٣] العقد الفريد ٢/ ٢٠٢.

[٤] جامع بيان العلم (ص ٥٦٧) ط دار ابن الجوزي.

يا من تشرف بالدنيا وزينتها ليس التشرف رفع الطين بالطين

إن أردت شريفَ الناس كلهم فانظر إلى ملكٍ فى زى مسكين

ذاك الذى عظمتْ فى الناس همته وذاك يصلح للدنيا وللدين [1]

✍ وإذا كان الجمع بين العلم والتواضع يؤدى إلى الرفعة والشرف فكذلك الجمع بين العجب وحب الرياسة يؤدى إلى الضعة والهوان، وفى هذا يقول البُحترى:

وإذا الشريف لم يتواضع للأخلاء فهو عين الوضيع [2]

---

[1] العقد الفريد ٢/ ٢٠٢ طبعة العلمية.

[2] جامع بيان العلم وفضله (ص ٥٦٧) ط دار ابن الجوزي.

وعن كعب رضي الله عنه أنه قال لرجل رآه يتبع الأحاديث: "اتق الله وارض بالدون من المجالس ولا تؤذِ أحداً فإنه لو ملأ علمك ما بين السماء والأرض مع العجب ما زادك الله إلا سفالاً ونقصاً". [1]

وقال ابن عبد البر:

حب الرياسة داءٌ يحلق الدينا ويجعل الحب حرباً للمحبينا

يفرى الحلاقيم والأرحام يقطعها فلا مروءة تبقى ولا دينَا

من دان بالجهل أو قَبِلَ الرسُوخ فما تلفيه إلا عدواً للمحقينا

يشنأ العلم ويقلى أهلها حسداً ضاهى بذلك أعداء النبيينا [2]

---

[1] جامع بيان العلم وفضله (ص ٥٦٨) ط دار ابن الجوزي.

[2] جامع بيان العلم وفضله (ص ٥٧٢) ط دار ابن الجوزي.

لك أيها الداعي

فالزم أيها الأخ الحبيب التواضع تحرز به السعادة، واحذر العجب فهو داء الجبابرة وعجب الدعاة عنوان حرمان، ولله در من قال:

العلم حرب للفتى المتعالى   كالسيل حربٌ للمكان العالى [1]

١٠- العزة

فكن أيها الأخ الداعي عزيز النفس واعلم أن عزة العلماء صيانة للعلم وتعظيم له وحماية لجانب عزه وشرفه، فإياك وأن تهين نفسك للكبراء أو أن يمتطيك السفهاء فتلاين فى فتوى كما حدث من بعض علماء عصرنا عندما أغراه الكبراء فوقع فى تحليل الحرام وتحريم الحلال أفتى بحل معاملة البنوك إيداع وإقراض بالفائدة وأفتى بحرمة الختان للمرأة، وأفتى غيره بجواز الاتجار في الخمور والخنازير، وأفتى غيره بجواز لبس البنت البنطال والخروج به فى الشارع بل وقال هو أعون لها على المشى من الجلباب، وأفتى غيره بإباحة مصافحة المرأة الأجنبية وسماع الأغاني ومشاهدة الخلاعة.

وإياك أن تسعى بعلمك إلى أهل الدنيا فتقف بالعلم على أعتابهم ولا تبذل العلم إلى غير أهله وإن عظم قدره، واعلم أن العلم لا يطرق على أحدٍ بابه إنما يؤتى إليه، هكذا قال السلف: العلم يؤتى إليه ولا يأتِ إلى أحد.

---

[1] حلية طالب العلم دكتور/ بكر أبو زيد (ص ١٠) طبعة القرطبة.

ورحم الله الأمام مالك بن أنس يوم أن قال للرشيد رحمه الله: "أدركت أهل العلم يؤتون ولا يأتون ومنكم خرج العلم وأنتم أولى الناس بإعظامه ومن إعظامكم له أن لا تدعوا حملته إلى أبوابكم". [١]

ولقد تكلم العلماء عن عزة العلم والعلماء قال مصعب بن عبدالله فى شأن الأمام مالك بن أنس رحمه الله:

يدع الجواب فلا يراجع هيبةً   والسائلون نواكس الأذقان

عِزُّ الوقار ونور سلطان التُقى   فهو المهيبُ وليس ذا سلطان [٢]

وكان العلماء يوصون طلاب العلم بحفظ قصيدة على بن عبدالعزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ التى مطلعها:

يقولون لى فيك انقباضٌ وإنما   رأو رجلاً عن موقف الذل أحجما

---

١ مستفاد من كتاب حلية طالب العلم دكتور/ بكر بن عبدالله أبوزيد، وكتاب فضل العلم وآداب طلبته وطرق تحصله وجمعه تأليف: أبي عبدالله محمد بن سعيد بن رسلان.

٢ حلية الأولياء لأبي نعيم (ج ٦ ص ٣٤٨) طبعة العلمية وسير أعلام النبلاء ٨/ ١١٣ طبعة الرسالة.

أرى الناس من دانهم هان عندهم ومن أكرمته عزةُ النفس أكرما

وما زلت منحازاً بعرضي جانباً من الذِّم اعتدُّ الصيانة مغنَما

إذا قيل هذا مشربٌ قلت قد أرى ولكنَّ نفس الحُرِّ تحتمل الظما

وما كل برقٍ لاَحَ لى يستفزُّنى ولا كل أهل الأرض أرضاهُ منعما

ولم أقض حق العلم إن كان كُلما بدا طمع صيرته لى سُلَّمَا

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخُدمَ من لا قيتُ لكنْ لِأخْدَمَا

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلةً إذن فإتِّباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظَّموه فى النفوس تعظَّمَا

ولكن أذلوه جهاراً وَدَنَّسوا مُحيَّاه بالأطماع حتى تجهَّمَا [١]

عندما يبيع العالم كتبه

من عزة الداعي أن لا يسأل الناس مهما كلفه استغناؤه عن الناس حتى ولو كلفه استغناؤه أن يبيع كتبه، وهذا ما صنعه أبناء بغداد يوم أن حاصرهم العالم وقاطعهم إقتصادياً حتى كتبت فيهم الصحافة تحت عنوان "دموع الكتب على سور بغداد" وهذا ما يفعله الكثير من دعاة الحق الذين ضيق عليهم النظام إنهم يبيعون كتبهم لينفقوا على أولادهم. [٢]

فإنا لله وإنا إليه راجعون.

[١] سير أعلام النبلاء (ج ١٧ ص ٢٠، ٢١) تحقيق شعيب الأرناؤوط طبعة الرسالة.

[٢] إصلاح الأمة فى علو الهمة للعفانى ١ / ٤٤٨ بتصرف.

تموت الأسد جوعاً فى البرايا   ولحم الضأن يُرمى للكلاب

فذوا جهل ينام على حرير   وذو علمٍ ينام على التراب

صور من عزة الدعاة

" حماد بن مسلمة "

كان حماد بن مسلمة عالماً عابداً محاسباً لنفسه حريصاً على وقته، قال فيه الذهبي: "كانت أوقاته معمورةً بالتعبد والأوراد"، ومن شدة مواظبته على الخير وخصاله قال فيه أحمد بن زهير عن يحيى قال: "إذا رأيت إنساناً يقع فى عكرمة وحماد بن مسلمة فاتهمه على الإسلام" [1]، وكذا قال هذا القول على بن المدينى. [2]

قال التبوذكى: سمعت حماد بن مسلمة يقول: "إن دعاك الأمير لتقرأ عليه ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص فلا تأته". [3]

[1] سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٧).

[2] تهذيب التهذيب.

[3] سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٨) وحلية الأولياء (٦/ ٢٧٠) طبعة العلمية.

وقال مقاتل بن صالح الخرسانى: دخلت على حماد بن مسلمة فإذا ليس فى بيته إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه، وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ فيها، فبينما أنا عنده جالس دق داق الباب. فقال: "يا صبية اخرجى فانظرى من هذا؟" فقالت: "رسول محمد بن سليمان الأمير". قال: "قولى له يدخل وحده".

فدخل فناوله كتاباً فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن سليمان إلى حماد بن مسلمة، أما بعد: فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة، فإننا نسألك عنها والسلام" – وكأنه يطلب منه الذهاب إلى قصره – فقال حماد: "يا صبية هلمى الدواة، ثم قال لى اقلب الكتاب واكتب: أما بعد: وأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون إلى أحد فإن كانت وقعت مسألة فأتنا وسلنا على ما بدا لك، فإن أتيتنى فلا تأتنى إلا وحدك ولا تأتنى بخيلك ورجلك، فلا أنصحك ولا أنصح نفسى والسلام".

يقول مقاتل بن صالح: فبينما أنا عنده دق الباب. فقال: "يا صبية اخرجى فانظرى من هذا؟" فقالت: "محمد بن سليمان الأمير". قال: "قولى له يدخل وحده". فدخل فسلم ثم جلس بين يديه فقال: "ما لى إذا نظرت إليك امتلأت رعباً؟" فقال حماد: "سمعت ثابت البنانى يقول سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن العالمُ إذا أراد بعِلْمِهِ وجهَ اللهِ هابه كلُّ شيءٍ ، وإذا أراد أن يُكَثِّرَ به الكنوزَ هاب من كلِّ شيءٍ)". [1]

[1] الحديث رواه ابن النجار كما في كنز العمال ٤٦١٣١ وقال الحافظ العراقى هذا معضل والحديث قال فيه الشوكاني إنه منكر. "الفوائد مجموعة" ٨٩٤ وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله كما جاء في ضعيف الجامع رقم ٣٨٣٦.

فقال محمد بن سليمان الأمير: "أربعون ألف درهم تأخذها تستعين بها على ما أنت عليه". فقال حماد بن مسلمة: "ارددها على من ظلمته بها". فقال محمد بن سليمان: "والله لا أعطيك إلا ما ورثته". قال حماد بن مسلمة: "لا حاجة لى فيها أزوها عنى زوى الله عنك أوزارك". قال محمد بن سليمان: "فتقسَّمها". قال حماد بن مسلمة: "فلعلى إن عدلت فى قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها لم يعدل، أزوها عنى زوى الله عنك أوزارك" [١]، ولما كان حماد بن مسلمة بهذه الشجاعة نصح طلاب العلم بالشجاعة.

ويروى أن الأمير خالد بن أحمد الذهلى "والي بخارى" بعث إلى محمد بن إسماعيل البخارى "صاحب الصحيح" أن احمل إلي كتاب الجامع وكتاب التاريخ وغيرهما لأسمع منك. فقال محمد بن إسماعيل لرسول الأمير: "أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضر فى مسجدي أو فى داري، وإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من الجلوس ليكون لى عذر عند الله يوم القيامة، لأنى لا أكتم العلم لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من رجلٍ يحفظ علمًا فكتمَه، إلا أتى يومَ القيامةِ مُلجَّمًا بلجامٍ من نارٍ)" [٢]، قال الراوى:فكان رد البخارى هذا سبب وحشة بينه وبين الأمير. [٣]

ورحم الله الإمام العز بن عبد السلام فلقد كان له من اسمه نصيب كان شيخاً عزيزاً أبياً شجاعاً فعندما كان الناس يُقبلون أيدى السلاطين من الملوك العظام كان العز بن عبد السلام يناديهم بأسمائهم المجردة فى مجالس ملكهم لا يخشى سطوتهم ولا جبروتهم، فلقد كان من قدر الله لمصر أن يحكمها عدد من الجبابرة منهم من

---

[١] المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٢٩٥، ٢٩٦ والقصة ذكرها الإمام النووي في كتابه المسمى بستان العارفين ص ١٤٣ طبعة مجلس أحياء التراث.

[٢] صحيح الجامع (٥٧١٣، ٢٧١٤، ٦٢٨٤).

[٣] تاريخ بغداد (ج ٢ ص ٣٢) طبعة العلمية.

يحسب على أمتنا من هؤلاء سلطان كان كثير التخيل والغضب لا تغفر عنده السيئة شديد السطوة على جلسائه يؤاخذ على صغير الذنب ويعاقب على الوهم ومن ثم كان لا يجرؤ أحد على مقاطعة كلامه أو انتقاده، لكن ثبت الله العز بن عبد السلام فوقف فى وجه هذا السلطان وناداه باسمه مجرداً بدون ألقاب وكان الذهاب فى يوم عيد وعساكر السلطان يلتفون من حوله وإذا بالعز بن عبد السلام ينادى ويقول: "يا أيوب [1] ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟" فقال: "جرى هذا؟" فقال: "نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب فى النعم"، فقال أيوب: "هذا من زمان أبى وما عملته أنا"، فقال العز بن عبد السلام له: "أنت من الذين يقولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [2]"، فكتب السلطان مرسوماً بإبطال الحانة التى نصحه بها العز رحمه الله.

فقال أحد تلامذة العز للعز: يا سيدى أما خفت السلطان؟ فقال العز: "يا بنى رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه والله يا بنى استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامى كالقط [3]".

حقاً هذا هو ما ينبغى للدعاة أن يفعلوه إن أرادوا أن تثمر دعوتهم، فالعلماء الربانيون هم الذين لا يهابون ظلم الظالمين ولا جبروت المتجبرين وما أوقع علماء الزمان فى الذل إلا حرصهم على الوقف على أعتاب الجبابرة والظالمين وهذا يخالف هدى السلف الصالح رحمهم الله.

---

[1] نجم الدين أيوب سلطان مصر "الملك الصالح" حكم مصر من سنة ٦٣٧ وتوفي سنة ٦٤٧ من كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ج ٢ ص ٥٦) طبعة العلمية.

[2] سورة الزخرف (٢٢).

[3] طبقات الشافعية لابن السبكي ٨/ ٢٣٦ دار التراث.

ولله در أبى قلابة [1] حيث كان له تلاميذ يأخذون عنه فأوصى أحدهم [2] فقال: "يا أيوب احفظ عنى ثلاثاً إياك وأبواب السلطان وإياك ومجالسة أهل الأهواء والزم سوقك فإن الغنى من العافية". [3]

فعليك بالعزة أخى الكريم فإنها مظهر من مظاهر الرجولة والشهامة كيف لا وهى تورث العفة والنزاهة، وهى صمام أمن للمجتمع من الشرور والأخطار حيث إنها تنمي الفضيلة وتمحوا الرذيلة وبالعزة تستجلب المكارم وتستدفع المكاره، والعزة علامة من الداعي على صدق ثقته بالله تعالى ويقينه وقوة دينه وبها يستجلب العون من الله جل جلاله.

فاحرص على أن تكون عزيزاً وإن أصابتك مهانة أو وقعتَ فى ضيم فعليك بالهجرة والتغرب فإنك ستسأل يوم القيامة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [4]، ورحم الله الشافعى عندما دعا إلى الإرتحال من الأرض التى فيها الضيم والذل ويضرب فى هذا مثلاً بالعنبر الخام والكحل كيف كانا قبل أن يتغربا عن موطنهما؟ وكيف أصبحا بعد التغرب؟ إن العنبر قبل أن نستخلص منه الرائحة الذكية لم يكن شيئاً مذكوراً بل كان أشبه بروث الحيوانات فأصبح الجميع يتسابق إلى حمله على الأعناق، والكحل لم يكن إلا حجراً من الأحجار فأصبح يحمل فى العيون، وما نالا هذه المكانة إلا بالتغرب.

كذلك الدعاة إذا تغربوا عزوا فى أعين الناس.

---

[1] أبو قلابة بكسر القاف هو عبدالله بن زيد بن عامر بن ناتل بن مالك بن عبيد، تابعي ثقة روى عن كثير من الصحابة الكرام منهم أنس بن مالك وأبو هريرة وغيرهم. تاريخ دمشق ٢٨/ ٣٠٠.

[2] أيوب السختياني.

[3] تاريخ دمشق ٢٨/ ٣٠٤.

[4] سورة النساء (٩٧).

ولله در الشافعى رحمه الله عندما قال:

إرحل بنفسك عن أرض تضام بهـا ولا تكن من فراق الأهل فى حُرق

فالعنبر الخام ردث فى مواطنه وفى التغرب محمول على العنق

والكحل نوع من الأحجار تنظره فى أرضه وهو مرمىٌ على الطرق

لما تغرب حاز الفضلَ أجمعه فصار يُحمل بين الجفن والحدق [1]

١١- سرعة البديهة واليقظة

من صفات الداعية سرعة البديهة، واليقظة وسرعة البديهة لا بد للداعية أن يصطحبهما معه ولا يغفل عنهما فكثيراً ما يتعرض الدعاة والخطباء إلى مواقف محرجة تستدعى سرعة البديهة وحسن التخلص، ومن هذا القبيل

[1] ديوان الإمام الشافعي.

تلك الأسئلة الدقيقة التى تكون من بعض السامعين المتحذلقين قد أعدها ليختبر بها الداعية أو ميوله الخاصة، فإن لم يكن الداعية يقظاً وقع فى شر أعماله.

ورحم الله ابن الجوزى وكان سريع البديهة فبينما هو يعظ الناس وكان واعظاً حصيفاً بليغاً وكان جمهوره عريضاً يستمع إليه الشيعة كما تستمع إليه السنة، فبينما هو مسترسل فى وعظه إذ قطع أحد المستمعين عليه بسؤال فى منتهى الحرج وكان ابن الجوزى يقظاً فأجاب عليه إجابة محتمله ليخرج من المأزق سأله فقال له: " أيهما أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوبكر أم على؟ " لاحظ أن المجلس فيه شيعة وأهل سنة وابن الجوزى لا يريد أن يخسر أحداً من جماهيره فلعل الشيعة يتعلمون من علمه، فأجاب بلباقة قائلاً أحبهما إليه من كانت ابنته تحته وهى إجابة تحتمل وجهين فظن الشيعة أنه على لأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحته وظن أهل السنة حملوها أنه أبو بكر الصديق لأن بنت الصديق عائشة رضى الله عن صحابة النبي أجمعين كانت تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن يقظة ابن الجوزى وذكائه صنف كتاباً سماه (الأذكياء) ومن جملة ما ذكر فيه، عن محمد بن معين الغفارى قال: أتت امرأةٌ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجى يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله. فقال لها: نعم الزوج زوجك. فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب فقال له كعب الأسدى: يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجها فى مباعدته إياها عن فراشه. فقال له عمر: كما فهمت كلامها فاقض بينهما. فقال كعب: علىَّ بزوجها، فأُتِىَ به فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك. قال: أفى طعام أو شرب قال: لا. فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم أرشده ألهى خليلى عن فراش مسجده

زهده فى مضجعى تعبده نهاره وليله ما يرقده

ولست فى أمر النساء أحمده

فقال زوجها:

زهدت فى فراشها وفى الحجل إنى امرؤٌ أذهلنى ما قد نزل

فى سورة النمل وفى السبع الطول وفى كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب الأسدى:

إن لها حقاً عليك يا رجل   تصيبها فى أربع لمن عقل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك ولها يوم وليلة. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله ما أدرى من أى أمرك أعجب أمن فهمك أمرها أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك قضاء البصرة.

فرضى الله عن عمر كان يختار ولاته لحسن فهمهم ورشدهم ويقظتهم وسرعة بديتهم ونظافة أيديهم وعظيم فقههم فى دين الله جل جلاله فخذ من هذا أو تأسى بهؤلاء العظماء.

وقديماً قال الشاعر:

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح

ومن كتاب "الأذكياء" إلى كتاب "كيف ندعوا الناس" للشيخ عبدالبديع صقر رحمه الله نجد المؤلف رحمه الله فى كتابه يقول: كان الطالب يؤدى اختباراً فى دروس التربية العملية تحت إشراف أحد الأساتذة فوقف أحد

التلاميذ ووجه للطالب سؤالاً وكان الطالب لا يعرف الإجابة غير أنه سريع البديهة فقال للتلميذ: ذكرني فى آخر الدرس وبمجرد أن دق الناقوس خرج التلاميذ يهرعون إلى فناء المدرسة ونسى التلميذ سؤاله فكتب المشرف الملاحظة الآتية: "الطالب ذَكِيٌّ وحسنُ التخلص".

وحكى لى بعض أساتذتى قصة رجل تعلم فى بلاد الكفر وتربى على الإلحاد وجاء ليعلم فى بلادنا وكان يشرح فى مادة الفلسفة فى درس الوجودية وأخذ يتدرج مع الطلاب بسؤال يليه سؤال والفرصة دينهم فجعل يقول: أترون محمداً يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: لا. فقال: إذن فمحمد غير موجود. ثم قال: أترون رب محمد؟ قالوا: لا. قال: فرب محمد غير موجود. فوقف طالب وسأل رفاقه الطلاب قال فيه: أيها الطلاب أترون عقل الأستاذ؟ قالوا: لا. قال: فعقل الأستاذ غير موجود، فانظر رحمك الله إلى بديهة الطالب ويقظته كانت أبلغ ردٍ على المدرس الملحد وكانت إفحاماً.

كذلك فالداعية بيقظته لا يخدع وبسرعة بديهته يخرج من المآزق.

الشجاع لا يخاف فى الله لومة لائم

كذلك أخى الكريم على الداعية أن يكون جريئاً والجرأة قوة نفسية رائعة يستمدها الداعية من إيمانه بالله الواحد الذى يعتقده ومن الحق الذى يعتنقه ومن الخلود الذى يوقن به ومن القدر الذى يستسلم له ومن المسئولية التى يستشعر بها ومن التربية التى ينشأ عليها.

وعلى قدر نصيب الداعية من الإيمان بالله الذى لا يُغلب وبالحق الذى لا يُخذل وبالقدَر الذى لا يتحول وبالمسئولية التى لا تُكل وبالتربية التى لا تُمل بقدر هذا كله يكون نصيب الداعية من قوة الشخصية والشجاعة والجرأة والصدح بالحق بلا خوف من لائمة اللائمين وهذا هو ما عناه الله سبحانه فى قوله تعالى وتقدس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾. [١]

جاء فى تفسير روح المعانى للألوسي كلام طويل وفى نهايته: يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون شيئاً من اللوم من أحد من اللوام ومن الجهاد الصدح بالحق والانتصار له خاصة عند المتكبرين والمتجبرين وهذا تحقيق لقول النبي صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)، (أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمامٍ جائر). [٢]

---

[١] سورة المائدة (٥٤).

[٢] صحيح الجامع ١١٠٠ والصحيحة ٤٩١.

واعلم ان الله جل وعلا قال فى القرآن مبينا صفات أئمة الهدى من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾. [١]، فوضح سبحانه وتعالى أنهم يخافونه فى كل ما يأتون ويذرون لا سيما فى أمر تبليغ الرسالة ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقتفى أثر إخوانه المرسلين فقال تعالى ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [٢]، وبما أن قدوة الدعاة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى بالإقتداء به فقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾. [٣]

فعلى الدعاة أن يخافوا الله وحده ولا يخافوا الناس وليعلم الدعاة أن الله تعالى يكفيهم المخاوف لأنه جل جلاله قال: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [٤]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [٥]، وقال أيضاً ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾. [٦]

---

[١] سورة الأحزاب (٣٩).

[٢] سورة الأنعام (٩٠).

[٣] سورة الأحزاب (٢١).

[٤] سورة البقرة (١٣٧).

[٥] سورة الأحزاب (٣٩).

[٦] سورة الأنفال (٦٢).

فإذا استشعر الدعاة الخوف من الله وحده الذى يكفيهم ويكافئهم على تحمل المشاق فى تبليغ الدعوة عندها لم يعبؤا بتهديدات شياطين الإنس والجن وانظر إلى خير القرون إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد أن الجرأة وعدم الخوف من لوم اللائمين جعلهم يصدحون بالحق فى أصعب المواطن وأشدها.

فها هو الصديق رضي الله عنه يوم أن مات النبي صلى الله عليه وسلم وهاج الناس وماجوا حتى أتى عمر رضي الله عنه الذى طالما نوهَ النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان يخاف من عمر، عمر الفاروق رضي الله عنه فقد صوابه يوم فاضت روح المصطفى صلى الله عليه وسلم فتكلم بلا وعى وقال من كان يزعم أن محمداً قد مات ضربت عنقه وإنما ذهب إلى ربه كما ذهب عيسى بن مريم.

وعلى الفور تحرك الصديق رضي الله عنه ليُسكِنَ هذه الفتنة فخطب خطبته الشهيرة التى كانت سبباً فى إفاقة عمر رضي الله عنه من صدمته فقال أبوبكر رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه أما بعد: "أيها الناس من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت" [١]، وبثبات لا يضاهيه ثبات قرأ قول الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾. [٢]

هذا الموقف وأمثاله جعل عمر رضي الله عنه يقول عن الصديق رضي الله عنه الكثير والكثير ومن جملة ما قال عمر رضي الله عنه فى حق الصديق رضي الله عنه أنه قال: "لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح إيمان أبى بكر"، ولطالما تكررت المواقف من أبى بكر رضي الله عنه ومن أبرزها موقفه من حرب المرتدين إقرأها فى

---

[١] صفوة الصفوة (ج ١ ص ٩٦) طبعة دار الصفا.

[٢] سورة آل عمران (١٤٤).

ترجمة الصديق رضي الله عنه فى كتب التاريخ، فالجرأة بالحق من أعظم الجهاد ومن َثمَّ كان الذى يُقتل بسببها فى عداد الشهداء والدليل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائر فأمرهُ ونهاهُ فقتله). [١]

واعلم أخى الحبيب أن من جملة ما بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرةٍ علينا وأن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم. [٢]

يقول الإمام النووى فى شرح: "وعلى أن نقول بالحق" معناه: نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر فى كل زمان ومكان ، الكبار والصغار، لا نداهن فيه أحداً. [٣]

وما أكثر المواقف الجريئة عند المتقدمين من العلماء رحمهم الله تعالى ولك بعض الأمثلة:

روى ابن عساكر عن أبى الحسين النورى أنه اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاح، فقال: ما هذا؟ ولمن هذا؟ فقال الملاح: هذه خمر للمعتضد، فصعد أبو الحسين إليها فجعل يضرب الدنان بعمود فى يده حتى كسرها كلها إلا دناً واحداً تركه. واستغاث الملاح فجاءت الشرطة، فأخذوا أبا الحسين فأوقفوه بين يدى المعتضد.

فقال المعتضد: من أنت؟ فقال النورى: المحتسب. فقال المعتضد: ومن ولاك الحسبة؟ فقال النورى: الذى ولاك الخلافة يا أمير المؤمنين. فأطرق المعتضد رأسه ثم رفعها وقال: ما الذى حملك على ما فعلت؟ فقال

---

[١] الصحيحة ٣٧٤.

[٢] مسلم إمارة ٤١.

[٣] مسلم، نووي، ج ٦ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث.

النورى: شفقةً عليك لدفع الضرر عنك. فأطرق المعتضد رأسه ثم رفعها وقال: ولأي شيء تركت منها دناً واحداً لم تكسره؟ فقال النورى: لأنى إنما أقدمت عليها فكسرتها إجلالاً لله تعالى فلن أبالى بأحدٍ حتى إذا انتهيت إلى هذا الدن دخل نفسى إعجاب من قبيل أنى أقدمت على مثلك فتركته. فقال المعتضد: اذهب فقد أطلقت يدك فغير ما أحببت أن تغيره من المنكر. فقال النورى: الآن انتقض عزمى عن التغيير. فقال المعتضد: ولم؟ فقال النورى: لأنى كنت أغيرهن لله والآن تغيرت النية. فقال المعتضد: سل حاجتك؟ فقال النورى: أحب أن تخرجنى من بين يدك سالماً. فأمر المعتضد به فأُخرج فصار إلى البصرة. [1]

وجاء فى المرجع السابق أن فرج بن فضالة كان جالساً مع طائفة من أهل زمانه فى قصر الذهب فدخل عليهم المنصور فقام الناس إلا فرج بن فضالة، فقال المنصور وهو مغضب من عدم قيامه: لم لم تقم؟ فقال فرج بن فضالة: خفت أن يسألنى الله عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك وقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم القيام للناس. فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه.

وكان سلمة بن دينار" المكنى بأبى حازم" يدخل على معاوية رضي الله عنه فيقول: السلام عليك أيها الأجير، فإذا حاولوا أن يقولوا لأبى حازم قل السلام عليك أيها الأمير، أبى عليهم ذلك، ثم التفت إلى معاوية فقال له:"إنما أنت أجير هذه الأمة استئجرك ربك لرعايتها". [2]

ومن شجاعة العلماء حسن رد عبدالله بن أبى داود مؤلف كتاب "المصاحف على الوزير على بن عيسى" عندما حدث خلاف بين عبدالله بن أبى داود وابن صاعد [3]، قال أبو حفص بن شاهين: أراد الوزير على بن عيسى

---

[1] انظر كتاب إيقاظ أولي الهمم العالية إلى اغتنام الأيام الخالية للمؤلف/ عبدالعزيز المحمد السالمان.

[2] انظر كتاب تربية الأولاد في الإسلام لعبدالله ناصح علوان.

[3] القصة يذكرها الإمام الذهبي في كتاب سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٢٦.

أن يصلح بين أبى بكر عبدالله بن أبى داود وابن صاعد فجمعهما وحضر أبو عمر القاضي، فقال الوزير: يا أبا بكر. أبو محمد أكبر منك فلو قمت إليه. فقال: لا أفعل. فقال الوزير: أنت شيخ زيف. فقال ابن أبى داود الشيخ الزيف: الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال الوزير: من الكذاب؟ قال: هذا. ثم قام وقال: تتوهم أنى أذِلُّ لك لأجل رزقى وأنه يصل إلَيَّ على يدك؟ والله لا آخذ من يدك شيئاً. قال أبو حفص: فكان الخليفة المقتدر يزن لأبى بكر بن أبى داود بيده ويبعث به فى طبق على يد الخادم.

ومن العلماء الشجعان الإمام العابد الواعظ الحنفي السلفي أبو عبدالله محمد بن محيى بن على بن مسلم بن موسى بن عمران القرش اليمن الزبيدى، قال الذهبى: "[1] قال ابن الجوزى: كان الزبيدى يقول الحق وإن كان مراً لا تأخذه فى الله لومة لائم. ثم قيل: دخل على الوزير الزمينى وعليه خلعة الوزارة، وهم يهنئونه. فقال: هو ذا يوم عزاء لايوم هناء. فقيل: ولِمَ؟ قال: أهنئ على لبس الحرير؟ "[2]

---

[1] فى السير ٢٠/ ٣١٧

[2] المنتظم (١٠/ ١٩٨).

صفات وآداب ينبغي للدعاة والخطباء التحلي بها

أولاً: صفات الخطيب

يمكن تقسيم الصفات المطلوب توفرها في الخطيب إلى نوعين:

أ) صفات وهبية أو فطرية.

ب) صفات كسبية.

أ) الصفات الوهبية أو الفطرية

ويقصد بها الصفات التي جُبل عليها ولم يُبذل في تحصيلها دراسة أو مران أو دربة، وهذه الصفات قسمان:

١. صفات ضرورية: ولا غنى عنها للخطيب الكامل.

٢. صفات تكميلية: وهذه الصفات دون الأولى في لزومها، ولكن على قدر توافرها في الخطيب تكون منزلته، وبها تتفاوت مراتب الخطباء ومنازلهم.

الصفات الضرورية

✍ طلاقة اللسان: فاللسان أداة الخطيب الأولى، وطلاقته ألزم صفاته وأشدها أثراً في نجاحه، وقد بالغ بعض الناس حتى عدها ركن الخطابة الوحيد.

✍ رباطة الجأش: يجب أن يكون مطمئن النفس واثقاً من نفسه ثابتاً غير مضطرب، فالمستمعون إن أحسوا بضعفه واضطرابه صغر في نظرهم، وهان كلامه في أعينهم، كما أن الاضطراب يورث الحيرة والدهش وهما يورثان الحبسة والحصر، وهذه الصفة وإن كانت وهبية في أصلها؛ إلا أنه يمكن تنميتها واكتسابها بالدربة.

✍ جهارة الصوت وحسنه: وهذه من الصفات الضرورية التي تمكن الخطيب من الاستيلاء على نفوس السامعين وجلب إصغائهم إليه، وهذه الصفات وإن كانت فطرية إلا أنه يمكن اكتساب بعضها كجهارة الصوت بتدريب الحنجرة وترويضها على الصوت المرتفع، ولا نعني بجهارة الصوت الصراخ الذي يسبب نفور المستمعين، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم...

✍ سرعة البديهة: حتى إذا وجد من القوم إعراضاً أو تعرض لموقف محرج أسعفته بديهته بالخروج من محنته وأزمته وإلا ضاعت الخطبة وآثارها، وهذه الصفة ترجع إلى حدة ذكاء الخطيب وشدة انتباهه وطول تجربته إضافة إلى ثقته بنفسه وقدرته على السيطرة على الموقف دونما ضعف أو خوف، والخطيب إذا واجه سؤالاً لا تحضره إجابته فعليه ألا يتحرج ويظهر ارتباكه ويمكنه الخروج من هذا الموقف بأن يقول للسائل: أعده علي بعد الخطبة أو نحو ذلك، وإذا واجه اعتراضاً لا يمكن الرد عليه فخير له التغافل عنه والاستمرار دون أن يعير قائله اهتماماً، وربما يتعرض الخطيب لموقف صعب غير متوقع يحتاج إلى أخذ قرار سريع ومناسب، كانقطاع التيار مثلاً، أو إغماء أحد المصلين أو تشنجه أو موته، والخطيب إذا لم يكن هيأ نفسه لمثل هذه المواقف ومعرفة التصرف الشرعي الصحيح فيها وأعد القرار المناسب لكل منها حسب ما تقتضيه الظروف والمصلحة فلا شك أن ذلك يكون سبباً لارتباكه أو ربما لاتخاذ قرار خاطئ مثل ترك هذا المغمى عليه دون إسعاف له ثم العودة إلى خطبته أو قطعها إذا لزم الأمر.

✍ رجاحة العقل: وهذه الصفة لازمة للخطيب ولغيره من المربين والموجهين، وبها يتمكن من البحث المركّز والملاحظة الدقيقة والاستنباط الصحيح وحسن المقارنة والموازنة بين الأشياء والمعرفة بطبائع الأشياء والأشخاص والأحداث.

الصفات التكميلية

✍ قوة العاطفة: فليست النائحة الثكلى كالمستعارة، ولا يعرف الشوق من لم يكابده، ولا الصبابة من لا يعانيها، وإذا لم يكن الخطيب جياش العاطفة حي المشاعر رقيق القلب مرهف الإحساس خرجت كلماته ميتة لا حياة فيها ولا روح، وكان أشبه بالنائحة المستعارة، ولم تتجاوز كلماته الآذان فالعاطفة للخطبة كالروح بالنسبة للجسد، لكن ينبغي أن تكون هذه العاطفة موزونة بالعقل الرشيد، والرأي السديد، وأن تكون خاضعة وموافقة لأحكام الشرع المجيد.

✍ النفوذ وقوة الشخصية: وهذه هبة من الوهاب العليم يهبها بعض الناس فتشعر منه بقوة الروح وعظم النفس، وهذه الصفة في الخطيب تكسب كلماته ونظراته وصوته قوة ونفاذاً وتأثيراً عظيماً في الجماهير، وهكذا كان صلى الله عليه وسلم من رآه بديهة هابه، ومن عاشره خلطة أحبه، وإذا كانت هذه منحة ربانية وهبة لا دخل للعبد فيها إلا أن هناك أسباباً وعوامل تضعفها أو تقويها، فمما يضعفها تبذل الخطيب بثيابه ووقوعه في رذائل الأعمال والأخلاق، ومزاحه الكثير أو القليل.

ب) الصفات الكسبية

وهذه الصفات ينالها الخطيب بالدراسة والمران والدربة، وهذه الصفات هي:

أولاً: العلم والاطلاع

وهي أولى الصفات وأهمها على الإطلاق، فقد بدأ الله بالعلم قبل العمل فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [1] وهو البصيرة التي جعلها شرطاً لاتباع سبيل نبيه ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [2]، والخطيب مربٍ ومعلم وموجه، وإذا لم يكن عالماً مطلعاً كان ضرره أكبر من نفعه، بل لم يكن فيه نفع البتة، والعلم درجات ومنازل، منها الضروري ومنها التكميلي.

أما العلوم الضرورية اللازمة للخطيب فهي:

١- علوم القرآن والسنة: وهذا هو لب بضاعة الخطيب ورأس ماله، فالخطيب داعية إلى الله ولا يمكن أن يهدي الناس ويعلمهم ويرشدهم بعيداً عن الكتاب والسنة وقد قال صلى الله عليه وسلم محذراً من صنيع أولئك الذين يدعون بعيداً عن الكتاب والسنة وأن ذلك من الدخن فقال في وصفهم: (قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بغيرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بغيرِ هَدْيِي). [3]

٢- الخطيب والقرآن: لا شك أن حافظ القرآن عن ظهر قلب أقدر على استحضار الآيات والاستشهاد بها وأن هذه الصفة من صفات الكمال للخطيب، ولكن لا شك أن هناك قدراً ضرورياً لا غنى للخطيب عنه، هذا القدر يتعلق أولاً بالقدرة على التلاوة الصحيحة السليمة لكتاب الله عز وجل بغير لحن، ثم القدرة على استحضار

[1] سورة محمد (١٩).
[2] سورة يوسف (١٠٨).
[3] صحيح مسلم (١٨٤٧).

الآيات المتعلقة بموضوع خطبته ومعرفة أقوال أهل العلم في تفسيرها والتمييز بين الصحيح والسقيم، والإسرائيليات والموضوعات وغيرها، ولا يفوتنا هنا التنبيه إلى المنهج الصحيح في دراسة التاريخ والاستقاء منه والحذر من الروايات غير الموثقة، فليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيحاً مائة في المائة، فكم حوت مراجع التاريخ من مبالغات وتشويهات وتحريفات، ربما كان وراءها أهواء وعصبيات سياسية أو دينية أو مذهبية، وكذا يجب الحذر من الاعتماد على كتّاب غير مسلمين من منصرين أو مستشرقين وغيرهم، وكتابات غير أهل السنة والجماعة ممن عرف عنهم فكر منحرف أو عداء للسنة وأهلها.

٣- العلم باللغة والأدب: ويكفي لمعرفة أهمية هذا العلم أن يستمع من له بعض الدراية باللغة ومفرداتها لكثير من الخطباء بل أكثر الخطباء تجد المنصوب عنده مرفوعاً، والمرفوع منصوباً أو مجروراً، والمجرور مرفوعاً أو منصوباً، وربما سار بعضهم على وتيرة واحدة، فينصب كل ما ينطق به لسانه، وربما رفعه كله أو جره، وهكذا يخرج المرء من الخطبة، وقد تأذى سمعه واقشعر جلده واضطرب قلبه، بل ربما تمنى صاحبنا أن لو كان لا يعلم عن اللغة شيئاً حتى يتسنى له الاستفادة من الخطبة والاتعاظ بها.

وأما الأدب بشعره ونثره وأمثاله وحكمه فهو نافذة الخطيب على الروائع والشوامخ، به يثقف لسانه ويجود أسلوبه ويرهف حسه، ومنه يحصل العبارات الرائقة والأساليب الفائقة والصور المعبرة والأمثال السائرة والحكم البالغة مما يعينه على إيصال المعنى لطبقات السامعين على اختلاف مشاربهم ومآكلهم وموادهم، وهذا يتأتى بالنظر في أقوال البلغاء والتأمل في مناحي التأثير وأسرار البلاغة، ومن الكتب التي تعين على ذلك كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وصبح الأعشى للقلقشندي مع الانتباه إلى الحذر من الإغراب في الألفاظ والعبارات، والانسياق وراء السجع ومبالغات الأدباء.

٤- العلوم الإنسانية: ومنها علوم النفس والاجتماع ونحوها مما له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة والخطابة وهو الإنسان على اختلاف طباعه وخصائصه وثقافاته، والإلمام بهذه العلوم يعين على فهم الناس وطبائعهم وأمزجتهم ومناحي التأثير والتوجيه فيهم، ولكن ينبغي التنبه والحذر من الإغراق في هذه العلوم وتلقيها من غير أصحاب العقيدة الصحيحة إلا إذا كان لديه من العلم والقدرة ما يميز به الغث من السمين، إذ أن غالب هذه العلوم للأسف الشديد شابها نزغات الفلاسفة والمناطقة من غير أهل الإسلام أو من أهل الإسلام الذين تبنوا المذاهب الكلامية التي على غير منهج السلف، ومن هذه العلوم:

أ) علم النفس: ونقصد به العلم التجريبي الذي انتهت إليه الدراسات النفسية الحديثة القائم على الدراسة العلمية المنهجية للظواهر النفسية على أساس الملاحظة والتجربة والقياس والاختبار، ولا نقصد به ذاك الذي كان جزءاً من أجزاء الفلسفة أو ما اشتهرت به مدرسة التحليل النفسي وما انبثق عنه من نظريات باطلة لا دليل عليها، وهذا العلم تكمن أهميته في إعانة الخطيب والداعية على فهم نفسية من يتوجه إليهم بالخطاب وما يؤثر فيهم ويشغل اهتماماتهم، وهل قول ابن مسعود لما قيل له: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: "أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا" هل هذا القول إلا من هذه المشكاة، بل هو أصل في هذه المشكاة؟

ب) علم الاجتماع: وهو العلم الذي يُعنى بدراسة المجتمع البشري في مختلف جوانبه، ويعمل على تحليل ظواهره والكشف عن القوانين التي تحكم مسيرته، وهذا العلم له مدارس عديدة واتجاهات متباينة، لكل منها مناهجه في البحث والتحليل، ويحسن بالداعية والخطيب أن يطلع على نبذة من أصول هذا العلم وأهم مقرراته وأحدث ما انتهى إليه رجاله، ويجب الانتباه إلى ضرورة تناول أسس هذا العلم من منظور إسلامي ووفق العقيدة الصحيحة.

٥- الإلمام بأصول الثقافة المعاصرة: فالمسلم اليوم يعيش في عالم مفتوح، ما يجري في مشرقه يتم الاطلاع عليه وسماعه وقراءته في يومه، بل ربما في ساعته، والإعلام اليوم ومن يقفون وراءه غالباً ما يمثلون المبادئ المخالفة للإسلام من يهود ونصارى وعلمانيين ومن على شاكلتهم، وهؤلاء يوجهون الدفة إلى حيث يريدون أن يغرسوا أذهان الناس وعقولهم خاصة أهل الإسلام، وكثير من الناس لا يعرفون إلا ما تخاطبهم به هذه الوسائل، ويتلقونها ويرونها حقائق مسلمة لا تقبل الجدال والنقاش، ولا يمكن أن يكشف اللثام عن حقيقتها ووجهتها إلا من خلال إعلام مسلم فعال مواكب جاد، ويبقى المنبر هو رائد هذا الإعلام وفارسه وصاحب الكلمة العليا فيه، ولكن للأسف الشديد فإن الخطباء لا يدركون هذه الحقيقة ولا يروون ظمأ الجماهير التي تأتي المسجد تريد معرفة وجه الحق والنظرة الصحيحة المستقاة من الشريعة الغراء لما يجد من ملمات وأحداث، ولكنها تصدم بخطيبها الذي لا يدرك عن الأمر شيئاً، وربما إذا تحدث فيه تحدث عن غير علم ودراية، فيزيد الطين بلة.

فينبغي للخطيب أن يكون عارفاً بمواقع الثقافة الجديدة وأهوائها الفكرية، وخلفياتها وأبعادها القريبة والبعيدة، وأن يكون متابعاً لأحوال الأمة واهتماماتها وما يراد بها، ولا نعني بذلك أن تكون رغبة الجماهير هي المسيطرة والموجهة لدفة المنبر وما يطرحه من موضوعات ، وإنما المقصود أن كثيراً من القضايا والمستجدات التي تحل بالأمة ويتناولها جميع أهل الأرض إلا أصحاب الشأن وهم المسلمون، ولسان حالهم ومقالهم وهم الخطباء، وأهم أصول هذه الثقافة هي:

أ) واقع العالم الإسلامي: فما أقبح بالخطيب أن يجهل أحوال أمته وواقع عالمه، وإلا فأين الجسد الواحد، ومن أين تستقي الجماهير أخبار إخوانهم وكيف يمكنهم مد العون لهم أو على الأقل المشاركة بالدعاء والدعم المعنوي لقضاياهم وأزماتهم؟!

ب) واقع القوى العالمية المعادية للإسلام: إن تكالب أعداء الإسلام على الإسلام ودعاته أمر لا ينكره إلا مكابر، وتنوع أساليب الأعداء وتبادلهم الأدوار، فهذا اليوم يقدم بدور الحمائم، وغداً يكون هو الصقر الذي ينقض على فريسته، ومع غفلة الأمة عن إدراك حقيقة الصراع وطبيعته يصبح دور الدعاة وخطباء الأمر أمراً لازماً لتبصير الأمة بهؤلاء الأعداء وأساليبهم ومؤامراتهم.

ولكن للأسف الشديد الناظر في أحوال الأمة اليوم يدرك غياب هذا الدور تماماً، ولا زالت تلهث وراء أعدائها وتتعلق آمالها بهم غافلة عن تاريخهم وعدائهم ومكرهم، وما ذاك إلا لأنهم اليوم يقومون بدور الحمائم، ومن ذلك تعلق المسلمين اليوم بروسيا أو فرنسا ليعيدوا إليهم حقوقهم السليبة وكرامتهم المفقودة وأرضهم المغتصبة ناسية أو متناسية دورهم القبيح وأفعالهم الشنيعة مع الشعوب المسلمة، فإدراك الخطيب بهذا الواقع وأساليب الأعداء من اقتصادية وسياسية وفكرية وتنوع صورها من مؤسسات تنصيرية أو تبشيرية أو استشراقية، أو ماسونية، وتحذيره الأمة وتبصيرها بذلك من شأنه أن يقيها ضربات موجعة مؤلمة، ولكن يجب الانتباه إلى أمرين:

١. عدم التهويل والمبالغة في شأنها، الأمر الذي ربما سبب اليأس والقعود، كما أن التهوين يسبب الاستهانة وعدم الأخذ بالأسباب.

٢. إدراك طبيعة العلاقة بين هذه القوى المعادية، وأنهم تحسبهم جميعاً، وقلوبهم شتى.

ج) واقع الأديان المعاصرة: فمعرفة واقع الأديان المعاصرة وما اعتراها من تحريف وانحراف أمر ذو بال؛ فمعرفة اليهودية بتوراتها المحرفة وتلمودها ونظرته إلى الأمميين وانعكاس ذلك على الحركة الصهيونية وطبيعة الصراع الإسرائيلي، ومعرفة النصرانية بطوائفها وكنائسها وما بينها من صراعات وخلافات ومحاولات ما

يسمى بالتقارب النصراني اليهودي وتبرئة اليهود من دم المسيح وما ترتب على ذلك من تغير طبيعة الصراع بينهما وتوحيد الجبهة ضد المسلمين، وكذا معرفة أديان الشرق الأقصى الكبرى من هندوسية أو بوذية وطبيعة العلاقة بينها وبين المسلمين، كل ذلك رصيد يحتاجه الخطيب ولا غنى له عنه.

د) واقع المذاهب السياسية المعاصرة: من شيوعية ورأسمالية واشتراكية وديمقراطية وعلمانية وقومية وعولمة، ومعرفة الفرق بينها وأبعادها ومدارسها وصور ممارساتها في العالم الإسلامي ولبوس الزور التي تلبسها للتلبيس على المسلمين، وموقف الإسلام منها ومبادئها.

هـ) واقع الحركات الإسلامية المعاصرة: ومعرفة أصولها الفكرية والحركية ومبادئها وحجم دعوتها وتأثيرها، وكيفية دعم الحركات التي على منهج أهل السنة والجماعة، والحذر من الحركات المخالفة لهذا المنهج مع النظرة الصحيحة القائمة على العدل، والمستقاة من النظرة الصحيحة في التعامل معها.

ثانياً: الدربة والمران أو الارتياض والممارسة

إن الفطرة والاطلاع وثروة الألفاظ والقراءة الكثيرة والعلم بالأصول الخطابية لا تكفي في تكوين الخطيب لأن الخطابة ملكة وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة، بل لابد لمريدها من المعاناة والمهارسة والمران لتنمية مواهبه وعلاج عيوبه، ولم يبدأ خطيب حياته كاملاً إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، وكثير من الخطباء الناصعين كانت فيهم عيوب كلامية وغيرها فلا زالوا يعالجونها ويتمرسون على الخطابة وأسبابها حتى وصلوا إلى ما هم فيه.

ورياضة النفس على الخطابة تكون بأمور كثيرة؛ بعضها يتعلق بالإلقاء، وبعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة.

ومن الرياضة التي تتعلق بالفكرة: أن يعود نفسه ضبط أفكاره ووزن آرائه وعقد صلة بينها وبين واقع الناس وأمورهم الحياتية، ومنها كثرة التأمل في شؤون الحياة وتعميق الفكرة فيها والدراسة لأحوالها، وأن يعود نفسه الاتصال بالناس ومعايشتهم لينبض بنبضهم ويعيش أحلامهم وأحاسيسهم.

وأما الأسلوب: فيعود نفسه الحديث بجيد الكلام وكتابته ومحاكاة البلغاء في أساليبهم مع الحذر من أن يرتدي غير ثوبه أو يطمس معالم شخصيته.

وأما الإلقاء: فيعود نفسه إخراج الحروف من مخارجها وقراءة ما يستحسنه بصوت مرتفع مصوراً بصوته معاني ما يقرأ بتغيير النبرات ورفع الصوت وخفضه، وغشيان ميادين القول والخطابة واغتنام فرصتها غير هياب ولا وجل ولا مستح، فإن الاستحياء في هذا نوع ضعف وهو يجر إلى الحبسة وموت المواهب، ويعود نفسه الارتجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعليه ألا ييأس إن أصابته حبسة أو ارتباك، على الخطيب أن يعلم أن أول وآخر طريقة فعالة لتوكيد الثقة بالنفس في فن الخطابة هي أن يقف ويخطب، عليه أن يدرك أن الطريقة الوحيدة لتعلم السباحة هي النزول إلى الماء!!

وثم أمر هام ينبغي التفطن إليه وهو أن الرياضة ليست فقط لطالب الخطابة، بل لزومها ربما يكون آكد لمن شدا فيها وعظم أمره، وهذا عمر رضي الله عنه يوم السقيفة يقول: "فزورت في نفسي كلاماً"، أي: إنه أعد في نفسه كلاماً وهيأها له، وهو من هو في البلاغة والفصاحة.

وهذا شيشرون أخطب خطباء الرومان يتمرن على إلقاء الخطبة قبل أن يقدم على إلقائها، وكانت تلك حاله حتى قتل.

ومما يتعلق بالفكرة هنا القدرة على استحضارها أو تنمية الذاكرة، وهذه مسألة هامة جداً للخطيب المرتجل على وجه الخصوص، والذاكرة القوية مع كونها فطرية في أصلها إلا أن أسباب اكتسابها ربما كانت أظهر للخطيب، وقوانين التذكر الطبيعية بسيطة جداً وهي ثلاثة:

أ) الانطباع: فهو أول قانون للذاكرة، والمقصود منه العمق والسرعة والرسوخ في الأمر المرغوب تذكره، وإن خمس دقائق من التركيز الشديد تعطي نتائج أهم بكثير مما يعطيه قضاء عدة أيام في التأمل، ويمكن للخطيب أن يعود نفسه على التركيز في الانطباع بالاهتمام مثلاً بحفظ الأسماء الجديدة التي يتعرف عليها، وهؤلاء الذين لا يتذكرون أسماء من يتعرفون عليهم وينسونها في لحظتها حقيقة سلوكهم ليس في ضعف الذاكرة كما يرددون أحياناً، وإنما في ضعف ملاحظتهم، ويمكن التأكيد على الانطباع الأول باستخدام أكثر من حاسة، كالنظر والسمع إذا قرأ الإنسان ما يريد تذكره بصوت يسمعه.

ب) التكرار: والتكرار الأعمى لا يكفي، والمطلوب هو التكرار الذكي الذي يصاحبه جهد ذهني، وهنا أمر هام أثبتته الدراسة النفسية وهو أن الإنسان الذي يجلس ويكرر مراراً حتى يسيطر على ذاكرته يستخدم ضعف الوقت والطاقة الضروريتين لتحقيق النتائج ذاتها التي يمكن الحصول عليها بإجراء عملية التكرار في فترات منفصلة، وهذه النتيجة جد مهمة للخطيب أن يعلمها وأن يعلم أنه بتأخيره وتحضير خطبته إلى ليلة أو يوم إلقائها فإنه بذلك يفقد نصف قدرة ذاكرته بسبب ما يتعرض له من إجهاد.

ج) ترابط الأفكار: إن سر الذاكرة الجيدة هو ذاته سر تكوين عدة أفكار مترابطة ومتعاكسة لدى كل حقيقة ترغب في الحصول عليها، مثلاً حتى يمكن تذكر اسم شخص ما يمكنك ربط اسمه بصفاته أو مهنته أو أحد

الأسماء المتداولة، وكذا التواريخ والأرقام عن طريق ربطها بتواريخ وأرقام هامة ثابتة في الذهن، وأفضل الطرق لتذكر النقاط الرئيسة في الخطاب هو التسلسل المنطقي لعناصر الموضوع.

وما سبق فهو من أساسيات التحصيل العلمي والدربة إلا أن هناك أموراً هامة يحسن التنبيه عليها وهي مرتبطة بها وهي:

١- تجنب الخوض فيما لا يعلم: فإن هذا موقع الارتباك والحديث غير المفهوم، وهو أحد أسباب ضياع الهيبة والوقار وفقدان الثقة في الخطيب والزهد فيه والنفور منه.

٢- مخاطبة الناس بما يعرفون: فمن الخطأ البين وقلة الفقه من الخطيب الخوض في دقائق العلوم والمعارف والخوض في الخلافات والعلوم التجريبية البحتة من طب وتشريح وفلك.. مما لا تدركه فهوم عموم المستمعين، الأمر الذي يكون له أكبر الأثر في الانصراف عن الخطيب وربما الاستهانة به وبموضوعه والتندر به.

٣- مراعاة مقتضى الحال وأحوال السامعين ومراعاة عادات الناس وأعرافهم: فلكل مقام مقال، ولكل جماعة لسان، والحديث إلى العلماء غيره إلى الأغنياء، وحديث العامة ليس كحديث العلية، وخطاب المثقفين غير خطاب الأميين، وما يقال في الخوف والشدة ليس كما يقال في الأمن والرخاء، ومخاطبة المتحمسين غير مخاطبة النائمين، والمتكلم الجيد يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار السامعين وأقدار الأهوال، كما أن خطاب أهل القرية المنعزلة المحدودة ليس كخطاب أهل المدينة المكتظة بأهلها وصحبها وأحداثها، وكذلك لكل جماعة من الناس عاداتها التي تسودها وتسيطر عليها، ولها سلطانها على القلوب والأسماع وغفلة الخطيب عن مراعاة

ذلك من أعظم أسباب فشله، وقد كان الأحنف بن قيس وهو من أبلغ البلغاء والخطباء المسودين فقيل له: بم سدتَ؟ قال: "لو أن الناس كرهوا الماء ما شربته"، ومعنى هذا اعتباره للعرف والعادة ومراعاة أهله.

ثانياً: آداب الخطيب

إن الخطيب رسول يتحدث عن الإسلام يقرب الناس إليه ويحببهم فيه ويوجههم للعمل بما يدعو إليه، وكل هذه مهام تتطلب صفات وآداباً وخصالاً تحمل الناس على الانقياد له والتسليم له، وهذا لا يتأتى من روعة الخطبة وحدها ولا براعة الخطيب ومهارته، وإنما هناك أمور وآداب ينبغي لكل خطيب أن يتحلى بها ويتأدب بها إن أراد أولاً تحصيل مكانة وثواب الداعي إلى الله عز وجل ثم التأثير في الناس وتوجيههم لما يدعو إليه، ويمكن تقسيم هذه الآداب إلى:

أ) آداب باطنة

وهي تتعلق بجملة من الأخلاق والآداب التي مردها إلى القلب والنفس وإن كان يظهر أثرها على السمت والظاهر، وهذه الآداب هي:

١ - الإخلاص: فيقصد بدعوته وخطبته وجه الله وحده لا سواه، لا يقصد جاهاً ولا شهرة ولا سمعة، فالخطابة والدعوة عبادة بل هي من أعظم الأعمال التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، ومن ثم فلا بد من توافر ركني القبول فيها وهما الإخلاص والمتابعة، وناهيك عن كون الكلمات الجوفاء غير المخلصة لا تؤثر في أحد ولا تحرك ساكناً وتخرج ميتة، فإن المصيبة العظيمة والطامة الخطيرة في افتقار الإخلاص وعقوبة ذلك الأخروية، وفي الحديث الصحيح: أول ثلاثة تسعر بهم النار يوم القيامة رجل تعلم العلم وعلمه ليقال عالم، وعندما يغيب الإخلاص ويلتمس رضا الناس وثناؤهم؛ فإن الذي يحرك الخطيب هو رغبات الناس واختياره لموضوع خطبته وطرحه

بقدر ما يحقق له ذلك، فليحذر الخطيب من هذا الداء العضال وليعلم أنه لا يجتمع إخلاص ومحبة ثناء وطمع في الناس في قلب أبداً إلا كما يجتمع الماء والنار، فمن أراد الإخلاص فليقبل على الطمع أولاً فيذبحه بسكين اليأس، وليقبل على حب المدح والثناء ويجهز عليه بسيف الزهد والطمع في الآخرة، فحينئذ يكون الإخلاص.

٢- القدوة الباطنة: ونعني بها موافقة العمل للقول وتصديقه له، وذلك أن الداعي من المدعو يجري مجرى الطابع من المطبوع، فكما أنه محال أن ينطبع الطين على الطابع بما ليس منتقشاً به، فكذلك محال أن يحصل في نفس المدعو ما ليس بموجود من الداعي، فإذا لم يكن الداعي إلا ذا قول مجرد من العمل لم يكن نصيب المدعو منه إلا القول، فكيف يستقيم الظل والعود أعوج؟! وفاقد النور كيف يستنير به غيره؟! قال مالك بن دينار: "إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا".

ولأن نطق الأفعال أقوى وأبلغ في الإقناع من نطق اللسان، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُسمع ما تقول ويُشتفى بالقول منك وينفع التعليم

وقد ذم الله عز وجل هذا المسلك أشد الذم فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1]، والمقت أشد الكره وأعظمه، فينبغي للخطيب أن يكون ذا سيرة سديدة وطريقة حميدة، غير متهافت على الدنيا ومراتبها، صابراً على آفاتها ونوائبها، مراقباً لله سبحانه في سره وجهره، راضياً عنه في عُسره ويُسره، مغتنماً نشاطه، مهتماً بتقصيره وجبره، محافظاً على العمل بما أمر به في نفسه وخاصته، مُحباً لأهل الله تعالى، مبغضاً لأهل مخالفته، حذراً من زخارف الدنيا وزينتها، غير مُلته بعبيدها وشهوتها، كارهاً لرفعتها وشهرتها، قائماً بفرائض الله وحدوده، قاعداً عن محاذره ومحدوده، مقبلاً على الله معرضاً عما سواه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا قعدة قاعد، ولا قومة قائم.

٣- الحلم وسعة الصدر: فكمال العلم في الحلم، ولين الكلام مفتاح القلوب، فيستطيع الخطيب أن يعالج أمراض النفوس ويداوي عللها بهدوء نفسه واطمئنان قلبه وسعة صدره، أما إذا استفزه الغضب واستثاره الحمق نفرت منه القلوب وأعرضت النفوس، والله عز وجل يقول لخيرة خلقه وخاتم رسله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[2]، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.

---

[1] سورة الصف (٣).

[2] سورة آل عمران (١٥٩).

٤- التواضع: والداعية إلى الله والخطيب الذي يوجههم أحوج من غيره إلى هذا الخلق؛ فالناس لا يقبلون قول من يستطيل عليهم ويحتقرهم ويستصغرهم ويتكبر عليهم، وإن كان ما يقوله حقاً وصدقاً، كذلك فإن من طبائع الناس أنهم لا يحبون من يكثر الحديث عن نفسه وكثير الثناء عليها، ويكثر من قول أنا، أنا..، كما أن الناس لا يقبلون على أصحاب الأبراج العاتية الذين ينظرون إليهم وإلى اهتماماتهم من علٍ يأنفون أن يخالطوهم عن كثب ويعيشون في معزل عنهم فلا تزاور ولا التقاء بعيداً عن جدران المسجد يلمس الناس فيه صدق الداعية والخطيب وشفقته وتواضعه.

٥- ضبط النفس واحتمال المكاره: فالخطابة منصب خطير؛ إذ قد تعترض الخطيب مصاعب ومكاره وقد يقابل بصد أو إعراض وربما سخرية واستهزاء، علاجه وسلاحه في ذلك كله الصبر والاحتمال.

٦- القناعة والعفة واليأس من الناس: فعلى قدر قناعة العلماء والدعاة والخطباء في الدنيا وتقللهم منها تكون مكانتهم في نفوس الناس والتفافهم حولهم والانقياد لهم، وعلى قدر تعلقهم بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعزوفهم عنهم ونفرتهم منهم، قال سفيان الثوري: "العالم طبيب هذه الأمة، والمال داؤها، فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره؟!".

والقناعة والعفة والاستغناء عن الناس شرف الداعية والخطيب، يقول الحسن البصري: "لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه". وقيل لأهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينارهم.

فينبغي للداعية والخطيب نزاهة النفس عن شبه المكاسب، والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب، فإن شبه المكتسب إثم، وكد الطلب ذل.

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهان ودنسوا   محياه بالأطماع حتى تجهما

ورحم الله محمد بن واسع البصري؛ فقد كان يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد.

٧- الورع واتقاء الشبهات والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة: فذلك أبرأ لذمة الداعية والخطيب وأسلم لعرضه وأهون على الإقبال عليه، وأدعى إلى الانقياد له؛ لأن حال الداعي يؤثر في القلوب أكثر من مقاله، وهكذا كان صلى الله عليه وسلم وصحابته وأئمة الهدى، وقد حكت لنا كتب التراجم والسير نماذج رائعة لورع السلف وصوراً أقرب ما تكون للخيال لولا صدق الرواية وتواترها، وهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه كان يوزن بين يديه مسك للمسلمين فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة، وقال: هل ينتفع منه إلا بريحه؟! قال ذلك لما استبعد ذلك منه، وهذا من ورعه رحمه الله.

وهذا الفضيل بن عياض رحمه الله كانت له شاة فأكلت شيئاً يسيراً من علف بعض الأمراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك.

وقال ابن المبارك رحمه الله: لأن أرد درهماً من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف.

وهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم سيد المتقين وإمام الورعين مر بتمرة فقال: (لَوْلا أنْ تَكُونَ صَدَقَةً لأَكَلْتُها)[1]، وخبر أبي بكر واستقائه معلوم مشهور.

وأما البعد عن مواضع الريبة ومسالك التهم، فذلك أن من فعل ذلك لا يأمن من إساءة الظن به وسقوطه في عين الناس فلا ينفع نصحه ووعظه، وهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم المعصوم الذي لا يظن به مسلم أبداً سوءاً يقول وقد رآه رجلان من أصحابه مع زوجه: (إِنَّهَا صَفِيَّةُ) فيكبر على الصحابيين ذلك فيجيبهما: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وإِنِّي خَشِيتُ أنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُما سُوءًا، أَوْ قالَ: شيئًا). [2]

فينبغي للداعية والخطيب أن يتحرز عن كل ما يوهم نسبته إلى ما لا يليق لئلا يوجب سوء الظن به، وإن كان له مخلص، فذلك سبب لعدم الانتفاع به وبإرشاده.

وعن علي رضي الله عنه قال: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره؛ فرب سامع نكراً لا تستطيع أن تبلغه عذراً.

٨- علو الهمة: فينبغي للخطيب أن يكون كبير الهمة عالي النفس مترفعاً عن الدنايا والسفاسف، يستصغر ما دون النهاية من معالي الأمور، ومثل هذا الخطيب يرتفع بهمم جمهوره، واهتماماتهم فيصطبغون بصبغته ويتخلقون بأخلاقه، وإنما كانت همة الصحابة رضي الله عنهم على هذا النحو العظيم، لتأثرهم بهمته صلى الله عليه وسلم وعلو نفسه الشريفة؛ حتى كان الشجاع منهم من يكون قريباً منه في ساحات الوغى.

---

[1] صحيح مسلم (١٠٧١).

[2] صحيح البخاري (٣٢٨١).

ب) آداب ظاهرة

وهي تتعلق بجملة من الآداب والأخلاق المتعلقة بالسمت والسلوك، وهذه الآداب لها دور بارز مؤثر في تأثير الخطيب في الناس واقتناعهم به وإقبالهم عليه ومن هذه الآداب:

١. حسن الهيئة: فالخطيب مطمع الأنظار، والنظر يفعل في القلب فعل الكلام في السمع؛ فينبغي له أن يتهيأ قبل الخطبة بالطهارة والادّهان والطيب والاغتسال والتزين على مقتضى الشريعة في جميع ذلك، يقول الماوردي: "ويستحب للإمام من حسن الهيئة وجمال الزي أكثر مما يستحب للمأموم؛ لأنه متبع"، وقال الإمام النووي: "ويستحب للإمام أكثر مما يستحب لغيره من الزينة وغيرها..".

وذكر الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" أن أبا واثلة إياس بن معاوية المزني أتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق، فاستولى على المجلس؛ ورأوه أحمر ذميماً باذ الهيئة قشفاً، فاستهانوا به، فلما عرفوه اعتذروا إليه، وقالوا له: "الذنب مقسوم بيننا وبينك؛ أتيتنا في زي مساكين تكلمنا بكلام الملوك".

كما لا ينبغي للخطيب أن يبالغ في ارتداء نفس الثياب بدعوة الوجاهة والوقار لما يترتب على ذلك من حصول فجوة في الغالب بينه وبين الجماهير، خاصة إذا كانوا من وساط الناس، وخير الأمور الوسط، وأفضل الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.

٢. الوقار والرزانة: وذلك بالإمساك عن فضول الكلام، وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغني عن الحركة فيه، والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح، وضبط اللسان من الفحش وذكر الخنا والقبيح، والمزاح السخيف، فلا كرامة لمبتذل، ولا عظمة لمن يسرف في المزاح ويفحش فيه، وينبغي له الترفع عن الجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة؛ فإن الإكثار من ذلك مخل بكرامته، وفي الجملة ينبغي له التحلي بالسكينة والوقار في

جميع أحواله وفي مشيته وكلامه، فهو من أسباب اكتساب الهيبة والإجلال عند الناس وأدعى للانتفاع به، ولكن يجب الحذر من الخلط بين الوقار والرزانة، وبين الكبر والعجب بالنفس والترفع عن الخلق؛ فليس مقصود كلامنا أن يصبح الخطيب شخصاً منبوذاً في مملكة موهومة لا يألف ولا يؤلف، ولا يجرؤ أحد على مخاطبته والحديث إليه، وهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم أعظم الناس وقاراً ورزانة ووجاهة وأعظمهم هيبة في نفوس أصحابه، وكانت الأمة تأتيه فتأخذ بيده فيصحبها حتى تقضي حاجتها.

٣. المحافظة على السنة: وهذا كما يشمل الاقتداء بسنته صلى الله عليه وسلم باطناً، فإنه أيضاً يشمل المحافظة على الهدي الظاهر المستحب منه والواجب، وهذا أدعى لقبول الناس منه ما يدعوهم إليه من اتباع أمره صلى الله عليه وسلم واتباع سنته وشرعته، ولا يعقل مثلاً أن يدعوهم إلى الالتزام بهديه صلى الله عليه وسلم ثم هو مثلاً حالق لحيته، أو ينهاهم على الإسبال مثلاً وهو مسبل، ومبدأ "خذ كلامي ودع فعالي" لا يصلح مع كل أحد خاصة الخطيب الذي تتجه إليه الأنظار وتتعلق به الأبصار، والذي عليه التأدب والالتزام بكل ما من شأنه أن يجمع حوله القلوب ويحملها على الامتثال، وبعد هذا البيان لصفات الخطيب وآدابه التي ينبغي له أن تتوفّر فيه، نشرع في بيان بعض العيوب التي ينبغي أن يتقيها ويجتنبها، فإنه لا يطيّب الثوب حتى يغسل.

عيوب الخطابة

يمكن تقسيم العيوب الحاصلة في هذا الفن ثلاثة أقسام:

١. عيوب في الخطيب.

٢. عيوب في الخطبة.

٣. عيوب نسبية.

الأول: عيوب في الخطيب

ومنها:

١ – اللحن: وأفحشه ما كان في آيةٍ أو حديث، ثم ما غيّر المعنى، ثم ما كان في كلام الغير، قال عبد الملك بن مروان: " الإعراب جمال للوضيع، واللحن هُجنة على الشريف، والعُجب آفة الرأي " [1]، وكان يقال: "اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدَريّ في الوجه". [2]

وإن أعظم أسباب اللحن الجهلُ بعلمي النحو والصرف، قال الأصمعي: "إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله صلى الله عليه وسلم: (من كذب علي فليتبوّأ مقعده من النار) لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يلحن، فمهما رويتَ عنه ولحنت فيه كذبت عليه"، ولذا ينبغي للخطيب أن يتعلم من النحو واللغة ما يقوّم به لسانه، ويَسلم به من هذه الآفة.

---

[1] (البيان والتبيين (٢/ ٢١٦)

[2] عيون الأخبار (٢/ ١٥٨)

٢- التصحيف: وأكثر ما يقع لمن يقرأ من كتاب، فيصحف نظره بسبب رداءة الخط أو ضعف البصر أو عدم استيعاب ما يقرأ أو عدم التركيز فيه أو غير ذلك من الأسباب، وقد حصل لبعض الفضلاء أن قال في خطبته وهو يقرأ من ورقة: "ومن ترك واجبًا من واجبات الحج متعمدًا يأثم ويَكْفُر" بتخفيف الفاء، فنبّهه بعض الناس بعد قضاء صلاته، فبادر إلى تصحيح خطئه، وقال: "الصواب: يأثم ويُكفِّر" أي من الكفارة.

الخطبة المكتوبة: ومن العيوب التي ينبغي التنبيه إليها في هذا المقام - وإن كانت هي ليست من التصحيف - انتقال البصر من سطر إلى سطر آخر، أو من فقرة إلى فقرة أخرى، أو أن تنقصه ورقة، أو يختل ترتيب أوراقه، ولا يتنبّه لشيء من ذلك، وهذا بعض مساوئ الخطبة المكتوبة، وهي عيوبٌ حادثةٌ لم يذكرها المتقدمون؛ لأن الخطبة عندهم لا تكون بالقراءة من كتاب، فهذه قراءة وتلك خطابة، فهما فنّان مستقلان متباينان.

٣- اللّفف والعجلة: والمراد باللّفف التباطؤ في الكلام حتى كأن لسانه قد الْتفَّ، والمراد بالعجلة السرعة في الإلقاء، فكما أن الإسراع مذموم لما فيه من تفويت الفهم على السامع، فكذلك التباطؤ مذموم لما فيه من بعث الملل والضجر في قلوب السامعين، والسنة الاقتصاد في ذلك، فعن عائشة رضي الله عنه قالت: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرُد كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بَيْنَه فصل، يحفظه من جلس إليه" [1]، وقد تكون سرعة الإلقاء طبعًا في الخطيب وقد يكون سببها طول موضوع الخطبة، أو القراءة من كتاب.

٤- كثرة الحركة: وذلك كالعبث باللحية أو الخاتم أو الساعة أو النظارات أو الثوب أو العمامة، فإنها منقصة من هيبة الخطيب، ومدعاة للازدراء والاحتقار، وأنشد بعضهم في ذم ذلك فقال:

---

[1] (أخرجه أبو داود [٤٨٣٩]، والترمذي [٣٦٣٩]، واللفظ له وحسنه، ووافقه الألباني.

مليٌّ ببُهر والتفاتٍ وسعلة   ومسحة عثنونٍ وفتل الأصابع [1]

وسبب هذا العيب هو ترك سنة الاستناد أثناء الخطبة، فينبغي للخطيب أن يعالج هذا العيب بوضع يديه على المنبر أو العصا، وأن يستشعر حرمة المقام ويراعي لحظ المخاطبين فيلزم السمت والسكون والوقار، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحركة اليسيرة الموزونة لا بأس بها، بل قد تكون أحيانًا مطلوبة لزيادة الإفهام، وهي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعملها في بعض خطاباته كما في قوله عليه الصلاة والسلاك: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، وقوله: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين)، وكإشارته بالسبابة إلى السماء، وغير ذلك، قال بعض الأدباء: "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط". [2]

٥- البهر والارتعاش والرّعدة والعرق: وهذا العيب من أشد العيوب وطأة على الخطباء، لأنه يعتري الخطيب قسرًا، ويغلبه قهرًا، فإذا اعتراه أفقده توازنه، وأوقعه في الاضطراب الشديد، وقد يصل به الأمر إلى أن يضطر إلى قطع خطبته فلا يستطيع إكمالها مهما حاول، حتى إن بعضهم لا يقوى على القيام، وهذا العيب غالبًا ما يعتري المبتدئين الذين لم يستعدوا نفسيًا ولم يتدربوا لهذا المقام، وقد يعتري غير المبتدئين وذلك إذا علم أن من بين الحضور أناسًا يوقّرهم ويعظمهم ويُكبرهم.

---

[1] (العقد الفريد (٤/ ٥٥)

[2] (البيان والتبيين (١/ ٧٨)

٦- رفع اليدين: رفع اليدين عند الدعاء في الخطبة خلاف السنة، إلا في دعاء الاستسقاء فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم رفع اليدين فيه، أما غيره من الدعاء فلا يشرع للخطيب أن يرفع فيه يديه، فعن حصين أن بشر بن مروان رفع يديه يوم الجمعة على المنبر، فسبّه عمارة بن رؤيبة الثقفي وقال: "ما زاد رسول الله على هذا" وأشار بإصبعه السبابة.

٧- ضعف الصوت: صوت الخطيب هو الآلة التي يبلّغ بها خطبته، فإذا كان صوته ضعيفًا كان التبليغ ضعيفًا، فلا يحصل مقصود الخطبة، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرّت عيناه وعلى صوته كأنه منذر جيش. يقول: (صبحكم ومساكم). [1]

وقد كانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت، فقال طحلاء وهو يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخطبة:

رَكوب المنابر وثّابُها   مِعَنٌّ بخطبته مجهرُ

تَريع إليه هوادي الكلام   إذا ضلّ خطبتَه المهذَرُ [2]

---

[1]

[2] (البيان والتبيين (١/ ١٢٧)

والمعنى(معنّ) أي تعنّ له الخطبة فيخطبها مقتضبا لها، (وتريع إليه ..). أي ترجع إليه أوائل الكلام إذا ضلت وذهبت عن المهذر الكثير الكلام، ويمكن للخطيب الذي بلي بهذا العيب أن يذهبه بالمراس والمِران.

٨- عدم التفاعل مع الخطبة: لا يخفى أن الخطبة قد تشتمل على فنون شتى متغايرة؛ فقد تشتمل على الترغيب والترهيب، وعلى التحذير والتبشير، وقد تشتمل على ما يقتضي الحزن أو الفرح، أو الغضب أو الخوف، والخطيب الموفق يعطي كل مقام حقه من الانفعال والتغيّر، وسبب هذا العيب في الغالب هو خروج الكلام من اللسان دون القلب، ومتى حصل ذلك لم تؤت الخطبة ثمارها. قال عامر بن عبد قيس: "الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان"، والتفاعل الذي ننشده هو التفاعل الحقيقي الصادق، وليس التفاعل الصوري المتكلّف، فهذا يضر صاحبه، ويجعله هزأة عند المستمعين، وأشد عيبًا من عدم التفاعل التفاعل بما لا يناسب الكلام فإنه يبعث في السامع التعجب والحيرة فيشغله محاولة تفهّم هذا التصرف من الخطيب عن الإنصات لخطبته.

٩- استغلال المنبر لأغراض شخصية: وهذا العيب من أخسّ العيوب، ويقع فيه بعض الخطباء لقلّة دينه وضعف إيمانه، أو لضعف شخصيته، ومن صوره أن ينتقم الخطيب لنفسه، أو يدافع على نفسه، أو يدعو إلى نفسه، وهذا من أكبر العدوان على المخاطبين، قال بعض الفضلاء: "إن شرّ السراق الخطباء الذين يستغلون المنبر لأغراضهم الشخصية؛ لأنهم يسرقون أعمار الناس، فهم شر ممن يسرق أموالهم".

ومن مضار هذا العيب:

- الإضرار بالدعوة.
- وعدم أداء الواجب الشرعي.

- والمساس بقيمة الخطيب ومكانته.
- وانتهاك حرمة المنبر وتعطيل مهمته.

فالخطيب في حقيقة الأمر لا يمثل شخصه وإنما يمثل منصبًا شرعيًا، فإذا لم يؤد الذي ينبغي كما ينبغي كان فتنة على الشرع، من أمثلة ذلك: خطيب بحضرة بعض الأغنياء، تناول موضوع فضل الصدقة، وحثهم على التصدق على أهل العلم والدعاة إلى الله، وغرضه من ذلك أن يتصدقوا عليه، ومن أمثلته أيضًا: خطيب يردّ على شخص بعينه تصفية للحسابات، ومن أضرار ذلك أن لا يفهم الخطبة إلا قائلها، والمردود عليه، ومن عنده علم بقضيتهما، وقد وصل الحد ببعض الخطباء في بعض المجتمعات أن يمكث نصف عام من الزمن وهو في صراع ونزاع شخصي مع خصمه في كل جمعة صولة وجولة.

١٠- استغلال المنبر لأغراض حزبية أو طائفية أو عصبية: وذلك بنشر أهداف ومبادئ حزب ما، أو فرقة ما من خلال المنبر، وهذا كله على حساب الدين والدعوة، فهو مناف للغرض الذي أسس من أجله المنبر، بل هو مناف كذلك لرسالة الإمام الشرعية.

١١- محاكاة غيره من الخطباء في طريقة الإلقاء، وفي النبرات والسكتات، وفي الحركات والسكنات: ومن أسباب هذا العيب ضعف شخصية الخطيب أو ولوعه بمن يحاكي ويقلد، ومن أضراره خروج الخطبة من كونها حقيقة إلى الصورية، فيصير الخطيب كأنه ممثل. وقد عاب المتقدمون الخطابة بخطب الغير، فكيف بمن يحاكي غيره من الخطباء.

قال أبو مسمار العكلي وهو يمدح عامرًا:

لله درّ عامرٍ إذا نطق في حفل إملاك وفي تلك الحِلَق

ليس كقوم يعرفون بالسرَق من خطب الناس ومما في الورق

يلفقون القول تلفيق الخلق من كل نضّاح الذفارى بالعرق

إذا رمته الخطْباء بالحدَق [1]

١٢- التفيهق والتشديق والتقعير والتقعيب: وهو أن يتكلم بأقصى قعر فهمه، وقد عاب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله: (وإنَّ أبغَضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ، والمتشدِّقون والمتَفَيهِقونَ) قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيهقون؟ قال: (المتكبِّرونَ) [2]، قال المنذري: "الثرثار بثاءين مثلثتين مفتوحتين وتكرير الراء هو الكثير الكلام تكلفًا، والمتشدق هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحًا وتعاظمًا

---

[1] (البيان والتبيين (١/ ١٣٣)

[2] (رواه الترمذي [٢٠٨٧] من حديث جابر وقال:"حديث حسن غريب" وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣/ ١٠٢) [٢٨٩٧].

واستعلاءً على غيره، وهو معنى المتفيهق أيضًا"، وقال أصحاب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيين: إنما عاب النبي صلى الله عليه وسلم المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها، والأعرابي المتشادق، وهو الذي يصنع بفكيه وبشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلف ذلك منكم فهو أعيب والذم له ألزم. [1]

تتبع الغريب والوحشي: وتجدر الإشارة هنا إلى أن من العيوب التي يقع فيها بعض الخطباء تتبع الغريب والوحشي من الألفاظ، فإن هذا مناف للمقصود من الخطبة فإن مدار أمر الخطابة على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهيم فكلما كان اللسان أبين كان أحمد، والوحشي من الكلام يناسب الوحشي من الناس، ولا يعني هذا أن يستعمل الهجين العامي، والساقط السوقي، وإنما يستعمل ما يوصل إلى المطلوب، ويختار للمعاني الجليلة الألفاظ النبيلة.

١٣- الجفاء والغلظة والقسوة على المخاطبين: وذلك بتوجيه الألفاظ النابية وأصناف الشتائم وألوان السباب إليهم وتنزيل نصوص الوعيد عليهم، واحتقارهم والتكبر والتعالي عليهم، وجرح مشاعرهم، من ذلك مثلاً أن يقول: "إن أبناءكم قد بلغوا منتهى سوء التربية والخلق وإن أزواجكم قد خرجن عن حدود الأدب..." وكان ينبغي له إذا اضطر إلى مثل هذا الكلام أن يدخل نفسه في جماعتهم، وأن يشعرهم بأنه فرد من أفرادهم، فيقول: "إن أبناءنا... وإن نساءنا"، ومن مساوئ هذه الآفة أن يمقت الناس الخطيب فلا يُصغُون إلى كلامه ولا يستفيدون من وعظه، بالإضافة إلى ما يلزم من ذلك من تزكية الخطيب لنفسه وإعجابه بها، واغتراره وكبره.

[1] (البيان والتبيين (١/ ٢٧١)

ولتجنب ذلك ينبغي للخطيب أن يكون حكيمًا، وأن يستعمل التواضع والتودد والرفق واللين، وأن يشعر المخاطبين بأنه يريد نفعهم، وأنه حريص على نجاتهم في الدنيا والآخرة، قال الحافظ ابن حجر: "من آداب الخطيب في حال وعظه أن لا يأتي بكلام فيه تفخيم لنفسه، بل يبالغ في التواضع لأنه أقرب إلى انتفاع من يسمعه". [١]

١٤- عدم الاعتناء بالهيئة: وهذا خلاف السنة فإذا كان من السنة لعموم الناس يوم الجمعة أن يغتسلوا وأن يستنّوا وأن يتطيبّوا وأن يلبسوا من جميل الثياب، فكيف بالخطيب الذي ترمقه الأبصار وتتجه إليه الأنظار؟! وإن الخطيب إذا ابتذل في مظهره احتقره الناس، وربما أهانوه، وصُرفوا عن الاشتغال بالإنصات إليه إلى الاشتغال بالنظر إلى هيئته، وكما أن الابتذال في الهيئة عيب ومذموم فكذلك الاعتناء الزائد على المشروع والخارج عن العرف، والذي ينبغي للخطيب الاعتدال في ذلك وأن لا يخرج عن المعروف المألوف.

١٥- الصوت النمطي المطرد على وتيرة واحدة: وذلك كأن يستوي عنده الاستفهام والتعجب والإنكار والإخبار والأمر وغير ذلك، ويستوي عنده أيضًا مقام الغضب ومقام الرضا، ومقام الفرح ومقام الحزن، ومن أسباب هذا العيب عدم تفاعله مع الموضوع أو عدم استيعابه له، ومن أضراره أنه يصعب بسببه فهم كلامه، ويبعث الملل في نفوس السامعين ويقذف فيهم النعاس، وتشرد أذهانهم لأنه ليس في طريقة الإلقاء ما يشدهم ويلفت انتباههم.

١٦- مناقضة لسانه لحاله: وهذا من أعظم العيوب وأخطرها، وأشدها ضررًا على الخطيب وعلى الدعوة، وما أكثر الآيات والأحاديث التي تذم الذي يقول ما لا يفعل، وتبين ما له من الوعيد يوم القيامة، ثم إن ضررها

---

[١] (فتح الباري (٢/ ٢١٧) كتاب الكسوف الباب الثاني.

على الدعوة محقق لأن الناس ينظرون إلى الأفعال أكثر من نظرهم إلى الأقوال فإذا وجدوا تنافرًا بينهما كان ذلك فتنة لهم.

١٧- النحنحة والسعلة: وهذه الآفة تكون عيبًا إذا تكرر صدورها من الخطيب؛ بحيث تقطع كلامه، وتقلل الفائدة من خطبته، وقد ذموا ذلك فأنشد سحيم بن حفص وقال:

نعوذ بالله من الإهمال   ومن كلال الغرب في المقال

ومن الخطيب دائم السعال [1]

[1] (البيان والتبيين (١/ ٤٠)

ثانيا: عيوب في الخطبة

وهي عيوب تكون في معنى الخطبة أو مبناها، ومنها:

١- خلوّها من التشهد والثناء على الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء). [1] أي كاليد المقطوعة أو المصابة بالجذام، قال المناوي - نقلاً عن ابن العربي -: "أراد بالتشهد هنا الشهادتين، من إطلاق الجزء على الكل كما في التحيات"، ثم نقل عن القاضي قوله: "أصل التشهد الإتيان بكلمة الشهادة، وسمي التشهد تشهدًا لتضمنه إياهما ثم اتسع فيه فاستعمل في الثناء على الله تعالى والحمد له". [2]

وقد كانت العرب تذم الخطبة إذا لم يكن في أولها حمد لله وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فقد خطب الفضل بن عيسى الرقاشي إلى قوم من بني تميم، فخطب لنفسه، فلما فرغ قام أعرابي منهم فقال: "توسلْتَ برحمة، وأدليت بحق، واستندت إلى خير، ودعوت إلى سنة، ففرضك مقبول، وما سألتَ مبذول، وحاجتك مقضية إن شاء الله تعالى"، قال الفضل: "لو كان الأعرابي حمد الله في أول كلامه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم لفضحني يومئذ" أي لبلاغته وفصاحته. [3]

---

[1] أخرجه أبو داود [٤٨٤١]، والترمذي [١١٠٦] من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي: " هذا حديث حسن صحيح غريب". ورمز السيوطي لصحته، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [١٦٩].

[2] (فيض القدير (٥/ ١٨).

[3] (البيان والتبيين (٤/ ٧٣).

وقد كان خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان، يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد: "البتراء"، ويسمون التي لم توشَّح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: "الشوهاء". [١]

٢- الطول الممل والقصر المخل: إن المقصود من الخطبة هو إفهام المخاطبين وإقناعهم بمضمون الكلام الموجه إليهم، فكل ما يحول دون ذلك عيب يجب اجتنابه، وأعظم ذلك الإطالة التي هي أدعى لسقطات اللسان، وتبعث الملل والسآمة في الإنسان، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرًا) [٢]، وقوله: (مئنة من فقهه) أي علامة على فقهه ودليل عليه.

قال بعض الأدباء: "للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعتَ الحكماء يعيبونه". [٣]

لكن ينبغي للخطيب وهو يراعي مجانبة هذا العيب أن يجانب أيضًا الوقوع في ضدّه وهو القِصر المخلّ، وخير الأمور الوسط، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: "كنت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا". [٤]

---

[١] (البيان والتبيين (٢/ ٦).

[٢] أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤) [٨٦٩] من حديث عمار رضي الله عنه.

[٣] (البيان والتبيين (١/ ٩٩).

[٤] (أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٠) [٨٦٦].

ويندُّ عن الذم ما يقتضيه الحال والمقام من طول أو قصر، ومما مدحوا به الطول والإيجاز إذا وقعا موقعهما قول داود بن حريز الإيادي:

يرمون بالخطب الطوال وتارة   وحيَ الملاحظ خيفة الرقباء [1]

٣- خلوها من نصوص الكتاب والسنة: وقد عد بعض الفقهاء من أركان الخطبة ذكر آية من كتاب الله تعالى، فلا يحسن بالخطيب أن يخلي خطبته من القرآن الكريم، وكذا من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع، وقد كانت العرب تعيب ذلك فقال بعضهم في خطيب مصقع: "هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن". [2]

وكان صلى الله عليه وسلم يعظ في خطبه بالقرآن الكريم، فعن صفوان بن يعلى عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ [3]، بل ربما قرأ سورة بأكملها، فعن أخت لعمرة قالت: أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة. [4]

---

[1] (البيان والتبيين (١/ ١٥٥).

[2] (البيان والتبيين (١/ ١١٨).

[3] (أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥) [٨٧١].

[4] (أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٥) [٨٧٢].

٤- كثرة الشعر فيها: وقد يصل الحد ببعض الخطباء إلى أن يُنزل الشعر منزلة الكتاب والسنة، فيستدل به كما يستدل بالكتاب والسنة، بل بعضهم قد لا يستدل إلا به، وهذا عيب كبير وطريق إلى تقرير الباطل إذا كان ذلك الشعر مشتمل على باطل، قال الجاحظ: "وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر" [1]، على أن الاستشهاد بالشعر الذي له وقع في النفس، ويؤيد المعنى الذي نسج له الكلام لا بأس به إذا كان بقدر وناسب المقام، وقد كان بعض خطباء العرب تفعله. [2]

٥- اشتمالها على ألفاظ منكرة شرعًا أو عرفًا: مثال الألفاظ المنكرة شرعًا أن يقول: "ما شاء الله وشاء فلان"، أو يقول: "من أطاع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما"، أو يقسم بغير الله تعالى أو غير ذلك من الألفاظ المنهية [3]، وعن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى) [4]، والمراد بالألفاظ المنكرة عرفًا ما اتفقت طباع القوم على استقباحه واستهجانه، فعلى الخطيب أن يتجنبه وأن يعدل عنه إلى بديل يعرفه القوم ولا ينكرونه، وهذا يختلف باختلاف البقاع والأصقاع، فربّ لفظ حسن شريف عند قوم قبيح هجين عند آخرين، وعليه يلزم من أراد أن يخطب في قوم أن يعرف لسانهم وعاداتهم وأعرافهم حتى لا يقع فيما يصدهم عنه ويسقطه في أعينهم.

---

[1] (البيان والتبيين (١/ ١١٨).

[2] (البيان والتبيين (١/ ١١٩ ـ ١٢٠).

[3] (معجم المناهي اللفظية للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله).

[4] (أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤) [٨٧٠].

٦- اشتمالها على باطل: وهذا من أخطر العيوب وأشدها ضررًا على الناس، وبخاصة إذا كان الخطيب مصقعًا مفوهًا، فيتوصل بحسن كلامه وتنميق عباراته إلى تقرير باطل كعقيدة فاسدة، أو بدعة محدثة، أو معاملة محرمة، أو معصية لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

٧- اشتمالها على أحاديث ضعيفة أو موضوعة: وهذا العيب قلّما يسلم منه خطيب في العالم الإسلامي، وذلك لعدم التحرّي والتثبت من صحة الحديث، ويخشى على من وقع في مثل هذا أن يتناوله الوعيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين) [1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع) [2]، ويشتد هذا العيب ويتفاقم إذا كان موضوع الخطبة كله مبنيًا على حديث ضعيف أو موضوع، كمن يخطب في قصة ثعلبة بن حاطب ويستخرج منها العبر والعظات، وهي غير ثابتة، أو يخطب في قصة الغرانيق وهي أيضًا لا تثبت.

٨- طغيان الأسلوب العلمي على الأسلوب الأدبي: من مظاهر هذا العيب أن يستعمل الخطيب مصطلحات علمية دقيقة لا يدركها عامة الناس، ومن مظاهره أيضًا التوسع في تخريج الأحاديث وعزوها والكلام على طرقها وعللها، ومن مظاهره أيضًا خلو الخطبة من الأساليب الإنشائية كالأمر والنهي والاستفهام والتعجب والدعاء وغير ذلك، مما يخرجها من حد الخطابة إلى حد المقالة.

٩- عدم إيفاء الموضوع حقه: وذلك بأن لا يتناول جميع عناصره، أو أن يستطرد ويفرع حتى يخرج عن الموضوع الذي يخطب من أجله، أو أن يشتت الموضوع ويبعثر الأفكار ولا يربط بينها.

---

[1] أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما.

[2] أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠- خلوها من الإرشاد والتوجيه الفوري: وذلك بأن يغض الطرف عمن يتخطى رقاب الناس، فلا ينهاه عن ذلك، ويسكت عمن جلس دون أن يركع ركعتين فلا يأمره بهما، ويحصل بين يديه منكر فلا ينهى عنه.

١١- اشتمالها على ألفاظ ثابتة لا تتغير، يفتتح بها ويختم بها وكأنها سنة ماضية: وذلك كقولهم: "أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..."، وقولهم: "بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..." وقولهم: "فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له..." وغيرها من العبارات التي يلتزم بها بعض الخطباء كأنها ركن من أركان الخطبة، وواجب من واجباتها.

١٢- غلبة الترخيص عليها: قال الحافظ ابن حجر: "من آداب الخطبة ترجيح التخويف فيها على التوسع في الترخيص لما في ذكر الرخص من ملاءمة النفوس لما جبلت عليه من الشهوة، والطبيب الحاذق يقابل العلة بما يضادها لا بما يزيدها". [1]

ثالثا: عيوب نسبية

قد يكون الخطيب مصقعًا متوفرًا فيه جميع شروط الخطابة وخاليًا من العيوب، وتكون خطبته بالغة الغاية في الجودة مبنى ومعنى، ولكن خطبته لا تناسب المكان الذي هو فيه، أو الزمان الذي هو فيه، أو الناس الذين يخطب فيهم، هذا ما نعني بالعيوب النسبية.

١- عدم مناسبة الخطبة للمخاطبين: وسبب هذا العيب في الغالب هو الجهل بواقع المخاطبين وأحوالهم ومستوياتهم وأعرافهم، فلا يراعي في خطبته المستوى العلمي واللغوي لدى المخاطبين، فيتناول موضوعا

---

[1] فتح الباري (٢/ ٦١٨).

يفوق أفهامهم، ويستعمل ألفاظًا لا يدركها أكثرهم، ولتحاشي هذه الآفة على الخطيب أن ينوع في استعمال المرادفات حتى يقع على اللفظ الذي يفهمه السامع ويصل به إلى المعنى الذي يريد أن يبلغه، وعن بعض الأدباء: "وليس يشرف المعنى بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتصنع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة من الخطاب، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. فمن تمكن من البلاغة في البيان على أن يفهم العامة معاني الخاصة، ويكسو الخطبة بالألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء فهو البليغ التام والخطيب المصقع" [1]، وقال بشر بن المعتمر: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات". [2]

٢- عدم مناسبة الخطبة للمكان: وذلك كأن يتناول في قلب الصحراء موضوع المنكرات التي تحصل في شواطئ البحار، أو يتكلم عن أحكام زكاة الزروع والضروع في مكان ليس فيه زرع ولا ضرع، أو غير ذلك، فعلى الخطيب أن يراعي المكان الذي هو فيه، وأن تكون خطبته مواتية للظرف الذي يخطب فيه.

٣- عدم مناسبة الخطبة للزمان: وذلك كأن يتبيّن فضل الجهاد وبعض أحكامه في زمان فتنة، أو يتكلم عن فضل العشر الأواخر من رمضان في أشهر الحج، أو يتناول فضل الحج في شهر رمضان، أو غير ذلك من نظائرها مما يقع فيه الخطباء كعدم مراعاة الأحداث، والمناسبات الشرعية ذات الشأن.

---

[1] العقد الفريد (٤/ ٥٥ ـ ٥٦).

[2] البيان والتبيين (١/ ١٣٨أ١٣٩).

نصائح للخطيب

وبعد: ننصحك أخي الخطيب ببعض النصائح المفيدة التي تعينك على النجاح في خطابتك، وهي:

- اغتنام فرصة نشاط النفس، وفراغ البال لإعداد الخطبة، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف، ومعنى بديع.
- الحذر من التوعر، فإنه سبيل التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك المعاني، ويشين الألفاظ.
- التماس الألفاظ الكريمة للمعاني الكريمة، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف.
- صون اللفظ والمعنى عما يفسدهما ويهجنهما.
- الحرص على أن يكون اللفظ رشيقًا عذبًا، وفخما سهلاً، وأن يكون المعنى ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، سواء عند الخاصة إن كانت الخطبة للخاصة، أو عند العامة إن كانت الخطبة للعامة. [1]

---

[1] (البيان والتبيين (١/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

كيفية تحضير الخطبة

تتألَّف الخطبة - من حيث إطارُها العام وهيكلها - من مقدمة وخاتمة، ومن موضوع يربط بين مقدمة الخطبة وخاتمتها، ويكون الموضوع هو حلقة الوصل بينهما، وقد تناولنا عناصر الموضوع، وما ينبغي للخطيب أن يراعيه عند اختياره للموضوع، وسنتكلم فيما يلي بشيءٍ من التفصيل عن مقدمة الخطبة وخاتمتها، وبالله التوفيق.

إن أهمَّ ما ينبغي في الخطبة هو مقدمتها المشتملة على براعة الاستهلال، ثم ما في جعبة الخطيب من الأساليب البيانية واللغوية، ثم وضوح المقصد والمعني بجلاء، ومن خلال جمل قصيرة مؤثرة، وتقسيم الخطبة إلى أقسام واضحة المعالم، ثم موضوعها وهو لُبُّها وزبدتها، ثم خاتمة الخطبة وهو أن تشتمل على فقرات يسهل تذكُّرها أو حفظها بعد أن ينتهي الخطيب من حديثه، وهذه العناصر متداخلة فيما بينها، يبلغ الترابط بينها ذروته وجودته حسب مقدرة الخطيب، وغزارة معلوماته، ومهارته وخبرته، وإليك البيانَ:

أولاً: مقدمة الخطبة

وهي المدخل والمفتاح للموضوع الذي سيختاره الخطيب، وهي عددٌ قليل من الفقرات التي يمكن من خلالها تقديم تلخيص لأهمِّ جوانب الموضوع، بحيث لا تشتِّت فكر المستمع، ولا بُدَّ أن تكون متناسبةً مع مضمون الخطبة، ومقدمة كل خطبة بحسب الموضوع، والهدف من المقدمة هو جلب انتباه الحاضرين إلى ما وراء المقدمة، وللمقدمة الأثر الفعَّال في نجاح الخطيب أو فشله، فإن كانت المقدمة بما حوته من ألفاظٍ ومعانٍ محكمةِ المبنى والمعنى، متينة الأسلوب، قوية التأثير، متضمِّنة للمقصود - كان لها الأثر في تنبيه الحاضرين، وإيقاظ الغافلين، و بها يتمكَّن الخطيب الناجح من أن يملك زمام الأمر، ويأخذ بناصية الموقف، وهي بمثابة "الدينمو" المحرِّك لاستكمال الخطبة بهدوء وسكينة وثقة نفس.

فمَن أراد أن يوفَّق لذلك فعليه مراعاة ما يلي فيها:

✍ أولاً: أن تتضمَّن المقدِّمة ما يسمى عند علماء المعاني في علم البلاغة ببراعة استهلال، وحسن الابتداء، وقوة الافتتاح، وأدنى من ذلك حسن الاستهلال.

براعة الاستهلال: وهي أن يبتدأ الكلام بما يناسب المقصود والمضمون، وهي تقع في بداية الكلام وديباجته، والخطب تبدأ عادة بحمد الله، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم الإشارة إلى الموضوع، ثم بخطابات عامَّة... وهكذا: "ولبراعة الاستهلال أثرها في تدعيم موقف الخطيب، وغرس الثقة في نفسه، ليتابع طرح موضوع خطبته بكمال القوة والثبات، فإذا ما فاجأ الخطيب المستمعين ببراعة التقديم، استطاع متابعة حديثة بنشوة، وثقة عالية، وقد اهتم القرآن الكريم بهذا الأسلوب في مطالع السور، وبداياتها، وتأمل قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾[1]، "ففي استفتاح قصة موسى – عليه السلام – بهذا السؤال الذي فيه تشويقٌ، وإثارةٌ لذهن السامع براعة استهلال"، مع قِصَر الجملة، وقوة المعنى، وفيه فائدة في طرح القضية على صورة الاستفسار، أو السؤال، وقد سلك عامَّةُ العلماء والأدباء هذا الأسلوب في مؤلَّفاتهم وأدبياتهم، وذلك بوضع مقدِّمة أدبية بين يدي الموضوع.

ولكن يجب أن يراعى في براعة الاستهلال ما يلي:

١. أن تتضمَّن الأساليب اللغوية والأدبية الواضحة السهلة، والابتعاد عن الألفاظ المعقَّدة والمبهمة، التي يغيب فهمها عن العوام، وكذا تجنُّب الألفاظ العامية؛ لأنها تعطي انطباعًا لدى الجمهور على

---

[1] سورة النازعات (١٥).

سطحية الفهم لدى الخطيب، وعدم النضوج لديه، ولا بأس أحيانًا من استخدام عبارات جديدة؛ من أجل أن تحقّق انسجامًا بين الخطيب والمستمع، ولكنَّ استعمالها يجب أن يكون بحذرٍ ودقَّة، وخاصَّة تلك التي تحتمل حقًّا وباطلاً؛ لأنها في بداية الخطبة ومفتاح الدخول للجمهور.

٢. التنوُّع والتجديد في طريقة تناول الموضوع، وأسلوب الاستهلال، والابتعاد عن التكرار في مقدمة الخطبة؛ حتى لا تكون كأنها نسخة مكرَّرة "وبعض الخطباء يستهلُّ خطبته دائمًا بألفاظ معينة يلتزم بها في كل خطبة، حتى أصبحت محفوظة مكرَّرة لدى المصلِّين، تدعو إلى الملل والسأم".

٣. عند تلاوة الآيات ينبغي عدم عرضها بصورة نصِّيَّة أكاديمية، بل لا بُدَّ من توضيح المعنى من خلال الإلقاء - يعتمد على حسن الإلقاء عند الخطيب - أو استخراج فوائدها ولو بشكل مختصر، كأن يقول الخطيب: "الحمد الذي جعل تقواه سببًا للفرج، ونزول الرزق، وحلول البركة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا﴾. [1]، من روائع براعة الاستهلال ما نُقِل عن الإمام أحمد بن حنبل - نوَّر الله ضريحه - في ديباجة خطبته في الرَّدِّ على الجهمية حيث قال: "الحمد لله الذي جعل في كل زمانٍ فترةً من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون مَن ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوْه! وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هَدَوه! فما أحسن أثرَهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم!... الخ". [2]

✍ ثانيًا: مراعاة الوقت: وهي من الأخطاء التي يقع فيها بعض الخطباء، فترى أحدهم يطيل المقدمة، وربما تفصيل ما تحدث عنه في موضوع الخطبة السابقة، فلا يدخل في صلب الموضوع إلا بعد أن تكون الأسماع قد

---

[1] سورة الطلاق (٢).

[2] (الرد على الزنادقة والجهمية"؛ تحقيق: دغش العجمي ص٨٥].

سئمَتْ من الإصغاء إليه، ولسان حال المستمع يقول: أعطنا زبدة الموضوع، وأَرِحنا بالمقصود يرحمك الله؛ ولهذا يراعى في المقدمة "أن تكون مناسبة في الطول والقصر لزمن الخطبة، فالمقدمة تُعَادِل من ٥-٨٪ من زمن الخطبة؛ لأن الافتتاح يعني: لفت انتباه السامعين في القصد من الخطبة، والأفضل أن تكون المقدمة هي عُشْر الموضوع، فإذا تجاوزت الربع إلى النصف فقد تجاوز الحد المطلوب.

✍ ثالثًا: التنبيه على موضوع الخطبة سلفًا: وهو ممَّا يريح المستمع من الاستنتاج، ويجعله وعاء وأرضًا خصبة لتلقِّي المعلومة، والأفضل أن يبدأ الخطيب بطرح الموضوع على شكل نقاط، أو محَاوِر، فيقول مثلاً: كلامنا يدور حول أهمية الصلاة في الإسلام في ثلاث مسائل: هي كذا...، أو يقول: خطبتنا اليوم هي حول العِبَر والعظات المستقاة من حادثة الإسراء والمعراج، أو يفهم الناس من مقدمة الخطبة بأن موضوعها هو كذا، كأن يقول: الحمد لله الذي جعل الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين.

✍ رابعًا: من المفيد للخطيب أن يبدأ خطبته بما يجلب انتباه السامعين، من حادثة صادفها، أو قصة قرأها، أو خاطر انقدح في نفسه [1]، وأن يكون الخطيب صاحب مهارة في تصيُّد المناسبات للتوجيه التربوي، وينوِّع في إيراد الحدث والمناسبة، كأن يقول: قرأتُ اليوم في الأخبار حدثًا أقلق مضجعي، وأثار اهتمامي...، أو يقول: في مثل هذا اليوم حدث أمر مهم جَلَل، وخَطْبٌ جسيم، لا زلنا نعاني آثاره إلى اليوم... ونحو ذلك، ثم يمضي بعدها مسترسلاً في وعظه، ويقرن بين التبشير والإنذار، ويتخيَّر من الحوادث ما يكون محورًا لوعظه، ويخرج بعد العرض بحلٍّ لما استجدَّ من حوادث، وما يحلُّ بالمسلمين من بلاءٍ وضيق، ويذكِّرهم دائمًا بأن المخرج والنجاة من الوضع الراهن هو طاعة الله ورسوله.

---

[1] ["أصول الدعوة"؛ د: عبد الكريم زيدان، ص٣٤٣).

✍ خامسًا: مراعاة ما يسمَّى بهندسة الصوت، وأن تكون نبرات الصوت ملائمةً للحدث، والموقف، والحال، ففي مقدمة الخطبة يستوجب من الخطيب أن يبدأها بقراءة كالقراءة والتجويد تمامًا، فإذا وصل إلى موضوع الخطبة رفع من صوته، وما بين مقدمة الخطبة وخاتمتها يكون صوته كالرسم البياني، يرفع ويخفض بحسب ما يلائم الموضوع، ومن الأخطاء في هذا الجانب أن يبدأ بعض الخطباء بصوت مرتفع، فلا يَصِل إلى الموضوع إلاَّ وهو متعبٌ منهك القوى، فيفقد كثيرًا من قدراته الصوتية.

✍ سادسًا: وبالنسبة لموضوع الخطبة يستحسن إذا كان الموضوع شائكًا، أو حسَّاسًا، أو تكلَّم به في مكان آخر فأوجب الانقسام عدم الدخول إليه مباشرة، أو التصريح به في المقدمة؛ بل لا بُدَّ من التدرُّج والتسلسل العقلي المنطقي؛ حتى يصل إلى مطلوبه ومبتغاه، وهنا يعتمد على مهارة الخطيب وقدرته على معالجة المشكلة، بما يملكه من علم وحكمة: "وجملة الأمر: أن المَطْلَع هو أول ما يستأذن على السمع من الكلام، فإن كان حسنًا، رائقًا ظريفًا، مناسبًا للموضوع، أذن له السمع، وتطلَّعت إلي ما يورده الخطيب بعده، وحثَّها على الشوق إلى الآتي بإضافته إلى الماضي، وهذا سرُّ حسنِ الافتتاح".[1]

ثانياً: خاتمة الخطبة

وهي آخر ما ينهي الخطيب خطبته، ويختم كلامه، ويتحقَّق به تمام الموضوع وكماله، ويسمَّى ذلك "حسن الانتهاء"، كما أن براعة الاستهلال تسمَّى حسن المطلع "وكما يجب التألُّق في المطلع، تجب البراعة في المقطع؛ إذ هو الأثر الباقي في نفوس المستمعين بعد الإتمام، وآخر ما يتردَّد صداه في قلوبهم، وبه تتمُّ الفائدة".[2]

---

[1] (فن الخطابة"؛ للعلامة: علي محفوظ، عضو هيئة كبار العلماء، ص٥٨).

[2] (فن الخطابة"؛ للعلامة: علي محفوظ، عضو هيئة كبار العلماء، ص٥٨).

أهمية الخاتمة

للخاتمة الأثر في بقاء قوة الخطبة في أذهان المستمعين؛ لأنها آخر جزء منها، وهي آخر ما ينساه المستمع من حديث الخطيب؛ والسبب أن المستمع يركِّز على مقدمة الخطبة وخاتمتها، أما في وسطها وما يتعلَّق بموضوع الخطبة، فربما أصيب المستمع بقلة التركيز، وشرود الذهن، فوجب على الخطيب الاهتمام بالخاتمة، وأن تكون في غاية الوضوح، والتأثير، والجمال والروعة.

أسلوب القرآن الكريم في خواتيم السور

ولنا في كتاب الله أسوة حسنة، فالمتأمِّل في خواتيم السور يجد أن القرآن اهتمَّ بخواتيم السور، فهي في غاية الروعة والبلاغة والبيان كبداياتها، حتى إن المرء ليحار أيُّها أجمل وأروع بلاغة، وبيانًا، وأسلوبًا، فقد جاءَت خواتيم السور "متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام؛ حتى لا يبقى معه للنفوس من تشوُّف إلى ما يذكر بعدُ؛ لأنها بين أدعية ووصايا، وفرائض، وتحميد وتمجيد، وتهليل، ومواعظ، ووعيد ووعد، وما إلى ذلك كالدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة، والوصايا التي ختمت بها سورة آل عمران؛ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾."[1]

فائدة حسن الختام في الخطب

١. فمن فوائد حسن الانتهاء والختام أن يتمَّ بذلك إقناعُ المدعوِّين، وتبصيرهم وتنويرهم، وهو إنَّما يتمُّ بإجمال ما ذكر من الموضوع، واختصار ما ذكر بأحسن لفظ، وأوجز بيان وأخصره، ولو جعلت

[1] سورة آل عمران (٢٠٠).

الخطبة مبتورةً عن خاتمتها لفات ذلك المقصد العظيم، مع ما يترتَّب عليه من سلبيات، ومخالفة السنة.

٢. تقوية الرغبة، وشحذ الهمَّة من جديد، بما أوصى به الخطيب من وصايا في موضوع الخطبة، وهو يتطلَّب بذل الوسع في إلهاب الحماس، وتحريك العواطف، بنفس الاندفاع والإثارة في بداية الخطبة الأولى؛ لئلاَّ تذهب حلاوة الموضوع وحرارته من نفوس السامعين، وليس من السُّنَّة أن تكون الخطبة الثانية مقتصرةً على الدعاء خالية من الوعظ، بل "ينبغي أن يكون لها صلة بالخطبة الأولى، أو فيها استكمال للنقاط التي طرحت فيها، أو استكمال للموضوع بنقاط وأفكار جديدة". [1]

ولذا يتطلب في خاتمة الخطب ما يلي:

✍ أن تكون ملخصًا لما جاء في موضوع الخطبة؛ ليخرج السامع وقد وضحت الفكرة لديه، وتبيَّن المطلوب عنده، ولكن يُرَاعَى في التلخيص أهمُّ ما جاء فيها من بيانات، ويظهرها في "صورة جديدة وأسلوب رشيق؛ لئلا تذهب حلاوتها، وحتى لا تكون إعادة أدلَّتها من باب التكرار المُمِلِّ المعيب [2]، وهو مما يملُّه السامعون عادة، ولا ينبغي للخاتمة أن تحتوى على أفكارٍ وأطروحات جديدة تخالف مضمون الخطبة الأولى؛ لأنها حينئذ ليست بخاتمة، بل إنشاء جديد، وهو من شأنه أن يؤدِّيَ إلى ضياع الفكرة وتشتت الذهن.

---

[1] (انظر: "خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة"؛ د: عبدالغني مزهر، ص٣٨).

[2] ("فن الخطابة"؛ للشيخ: على محفوظ، ص٥٩).

✍ أن تكون قصيرةً بالنسبة لزمن الخطبة الأولى، ولأن الخاتمة تتضمَّن أمورًا منها: التلخيص، والوصية، وعبارة الختام، والدعاء لولاة الأمر، ولعموم المسلمين، وجعلها أطول من الأولى يفقد الخطبة حلاوتها وتأثيرها بالمرَّة، حتى ولو كانت الخطبة الأولى في غاية البيان.

✍ أن تكون في منتهى الوضوح والقوة؛ لأن الخلل أو الزلل يُربِك الخطيب ويضيع جهوده، ويؤدي إلى نسيان موضوع الخطبة بالمرة.

✍ إن كان موضوع الخطبة مجزَّئًا إلى أجزاء، فيمكن للخطيب بما لديه من مهاراتٍ أن يلخِّصَ في الخطبة الثانية ما في القصة من عِبَرَ وعظات إلى نقاط، ويَعِدَ الجمهور بتكملة الموضوع في الجمعة القادمة، كأن يقول: "وللحديث صلةٌ أو بقية"؛ ليبقى المستمع على تشوُّق وترقُّب للموضوع، أو القصة.

✍ يمكن للخطيب أن يهيِّئ الجمهور للخاتمة بعباراتٍ يفهم منها أنها – أي: الخطبة – على وَشْك الانتهاء والختام، وهو ما يسمَّى بالنغمة المتغيِّرة، وهو ما يعطي تأكيدًا لفظيًّا للمستمع، ويريحه من الانتظار.

وختامه مسك: للخطباء عبارات في الدعاء والوصية في ختام الخطب، يتفننون بها بأسلوب أدبي رائع، فيعرف الناس أنهم قد شارفوا على الانتهاء من حديثهم، وقد كان الخليفة الراشد أبو بكر إذا تكلَّم به عُرِف أنه قد فرغ من خطبته: "اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك"، أمَّا عمر بن الخطاب فكان أكثر خواتيم خطبه: "اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني على غِرَّة، ولا تجعلني من الغافلين"، وكما

كان الخليفة عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته: "اللهم إن ذنوبي قد عظمت، وجلَّت أن تحصى، وهي صغيرةٌ في جنب عفوك، فاعفُ عني". [١]

ثالثاً: بيان المقصد

هو أن يظهر الخطيب ما يبني عليه كلامه، بذكر ما سيلقي بعبارة جامعة جلية موجزة؛ لتكون كالعنوان للكتاب، ولبيان المقصد عند العرب أسماء أخرى، وقد يسمونه بالسِّمَة، وهي عنوان الخطاب، ليكون عند السامع إجمال ما يفصِّله الخطيب بعدُ.

والصفات الملائمة لبيان المقصد ثلاث:

١. أن يكون مترتبًا على قضية واحدة فقط؛ كما لو أردت الكلام على العدل؛ فإنك تقول: إن العدل أساس عمران الممالك – مثلاً.
٢. أن يكون واضحًا؛ لأن الغرض إذا كان خفيًّا بعيد المأخذ تبرَّم منه السامع، مثلاً: إذا كان الكلام على حسن الخُلُق قلتَ: "مَنْ حَسُنَ خُلُقُه وجبت محبته، ومَنْ ساء خُلُقُه تنكَّدت معيشته"، أو على شرف العقل قلتَ: "خير المواهب العقل، وشرُّ المصائب الجهل".
٣. أن ينشط السامعين بابتكار صورته ولطيف مخرجه؛ كما تقول في كثرة خطوب الدهر: "الليل والنهار غرسان، يثمران للبرية صنوف البلية"، أو: "زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا"، أو التحذير من المعاصي قلتَ: "رأس الحكمة مخافة الله".

---

[١] (كتاب: "الخطب والمواعظ"؛ بقلم: محمد عبد الغني حسن، ص٤٤، طبع دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية).

ويتبدَّى فقه الخطيب وحسن اختياره للموضوعات في الملامح التالية:

✍ استحضار الهدف: إنَّ من فقه الخطيب أن يكون مستحضرًا الهدف الذي يريد أن يتوصل إليه بخطبته ويكون ذلك الهدف مشروعًا، وبحسب ذلك الصف يبني خطبته وينظم عقدها، ويكون مقتنعًا بذلك الهدف فيكون اختياره للموضوع نابعًا من صلاحيته للعرض على الناس ومقدار النفع المتوقَّع لهم منه، لا أن يكون ناتجًا عن اندفاع عاطفي أو رغبة في إرضاء جمهور الناس إذ صار ذلك همّ بعض الخطباء – شعروا أو لم يشعروا – فهم يهتمون بطرح ما يرضي الناس وما يرغبون فيه، فيكون المؤثر في الخطيب الناس في حين المفترض العكس، ويمكن أن يكون هناك نوعان من الأهداف:

١. أهداف بعيدة المدى: بحيث يجعل الخطيب في الحي أو البلدة أو القرية مجموعة من الأهداف يسعى لتحقيقها في حيه أو بلدته فيرسم معالم للتغيير الذي ينشده وطرائق لمعالجات الواقع في مجتمعه مراعيًا في ذلك الموازنة من جلب المصالح ودرء المفاسد، ويكون وضع هذه الأهداف في ضوء دراسته للبيئة التي يعيش فيها.
٢. الأهداف الخاصة بكل خطبة: بحيث يكون الخطيب قاصدًا لأهداف يريد تحقيقها وغايات وأغراض يريد الوصول إليها.

✍ أن تكون الخطبة صادرة من شعور قلبي صادق: إن أحسن الخطب وأفضلها وأكثرها نفعًا وفائدة ما كان صادرًا من شعور الخطيب، وإحساسه بأهمية الموضوع، وبمقدار حاجة الناس إليه، فالداعية رحيم بالناس، مشفق عليهم كأنه النذير العريان؛ لأنه ينذر الناس ما هم مقدمون عليه من العذاب، وهذا ما يفسر لنا تأثير النبي صلى اللهّ عليه وسلم في الخطبة إذا ذكر الساعة، ففي حديث جابر بن عبد اللهّ رضي اللهَ عنهما في الكلام

عن خطبة النبي صلى اللهّ عليه وسلم: وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش، يقول: (صبَّحكم ومسَّاكم ....). [١]

✍ اختيار الوقت المناسب للموضوع: إن من المداخل الجيدة للموضوعات الخطابية يوم الجمعة أن يكون السياق الزمني داعيًا لها وإذا استغل الخطيب ذلك الظرف كان لخطبته أثر كبير، مثال ذلك: لو كانت الأمة في حالة خوف وفي خضم أمر عظيمٍ دهمها فركنت إلى القوى المادية، فخطب الخطيب عن التوكل على اللهّ وأهميته، وأن اتخاذ الأسباب لا ينافي ذلك لوقع الموضوعُ في نفوسهم موقعه ولرسخ في الأذهان وردَّ الناس إلى الموقف الرشيد.

ومن مراعاة الوقت أن يختار لكلِّ موسم ما يصلح له، فلرمضان من الخصائص ما ليس لغيره من الشهور، وفيه من الوظائف الشرعية ما ليس في غيره؛ فتكون الخطب في جمعه مراعية للظرف، وليس من الحكمة في شيء أن يخطب الإنسان بعد نهاية الظرف المناسب للموضوع عن الموضوع (فقد خطب أحد الخطباء في إحدى عواصم الدول الإسلامية عن ليلة القدر يوم الثلاثين من رمضان وليس هناك أمل بإدراك هذه الليلة)، وإنَّ فاعلية الخطبة في نفوس السامعين تزداد إذا قرن موضوعها بشيء من الواقع الذي يعيشونه فيستخدم الأحداث التي تقع وسيلة لإيصال الحقائق التي يريدها.

✍ التركيز على الأساسيات والقضايا الكلية: ومن فقه الاختيار التركيز على الأساسيات والقضايا الكلية، وعدم تضخيم الجزئيات على حساب الكليات الأصول، قال ابن القيم – رحمه اللهّ – "وكذلك كانت خطبته صلى الله عليه وسلم إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان باللهّ وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة

---

[١] (رواه مسلم ٢ / ٥٩٢ – ٥٩٣ ورواه النسائي ٣ / ١٨٨).

والنار وما أعد اللهّ لأوليائه وأهل طاعته وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا ومعرفة باللهّ وأيامه، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمورًا مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت، فإن هذا أمرٌ لا يُحَصِّلُ في القلب إيمانًا باللهّ، ولا توحيدًا له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيرًا بأيامه، ولا بعثًا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلي الترابُ أجسادَهم فيا ليت شعري أي إيمانٍ حصل بهذا؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به؟ [1]

ومع أنَّ هناك بعض الجزئيات أو الفروع التي قَد يرى الخطيب وجوب بيانها للناس، إلا أنه لابد من التأكيد على ربط تلك الجزئية بالكليات العامة، وهذا الربط له أثره في بيان حكم الأمر والنهي والحض على الالتزام بالأمْرِ، واجتناب النهي، وإذا جعل الخطيب مدخله إلى الجزئيات أمورًا كلية كان ذلك أدعى لقبول القول، مثال ذلك: تكلم خطيب عن حلق اللحية وحرمة ذلك بالنصوص، ونقل أقوال أهل العلم، وتكلم آخر عن نفس الموضوع جاعلاً المدخل من خلال قضيتين:

١. وجوب تعظيم السنة والتزام أمر النبي صلى الله عليه وسلم.
٢. حرمة التشبه بالكفار، وعزة المسلم بمظهره ودينه وشعائره الظاهرة، ودلف إلى موضوع اللحية بعد أن أصَّل هذين الموضوعين فكان لخطبة الثاني من الأثر والقبول ما ليس لخطبة الأول.

---

[1] (ابن القيم: زاد المعاد ١ / ٤٢٣).

وهذا الربط موجود في النصوص ذاتِها فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول في أمر اللحية: (جُزّوا الشوارب وأرخُوا اللحى وخالفوا المجوس)[١]، فأكد على موضوع المنع من التشبّه.

✍ الحرص على عدم التكرار إلا لحاجة: ينزع بعض الخطباء إلى تكرار خطبهم كل سنة، ميلاً إلى الدعة ورغبة عن البحث والاطلاع "فيقع أسيرًا لبضعة مواضيع قد تكون هامة وقد لا تكون، ليَطْلُعَ بها علينا كلَّ أسبوع، مما يحدث الملل لدى الجمهور الذي يعاني تكرار الخطب التي لا جديد فيها، ويؤدي إلى إهدار قيمة هذا المنبر الخطير"، وهذه الظاهرة وإن كانت قلت – وخصوصًا في المدن والحواضر الكبرى – إلا أنها لها وجهان لا زالا باقيين:

١. تكرار الخطبة الثانية: إذ يلتزم البعض خطبة واحدة محفوظة لا تتغير ولا تتبدل طوال العام وفوق هذا لم يرد في السنة فهو أيضًا أخذ لوقت الناس بدون فائدة، بل يسمعون كلامًا حفظوه لكثرة ترداده[٢]، نعم من المشروع أن يذكر في خطبه بعض الجمل الجامعة التي كان يكررها النبي صلى الله عليه وسلم مثل قوله: (فإن خير الحديث كتاب اللهّ وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة)[٣]، ولكن ذلك لما تحويه هذه الجمل من الوصايا الجامعة الشاملة وأما ترديد غيرها مما لم ترد به السنة فغير محمود.

---

[١] (رواه مسلم).

[٢] (محمد الخولي، مجلة المنار ٥ ص).

[٣] (رواه مسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧) والنسائي ٣ / ١٨٨، ١٨٩ في العيدين باب كيفية الخطبة بزيادة (وكل ضلالة في النار) وإسناده صحيح).

٢. تكرار الخطب في المناسبات: ففي رمضان يخطب الخطيب في الأول عن البشارة برمضان، ثم يثُني بالكلام عن أحكام الصيام، ثم يثلّث بالكلام عن العشر الأواخر وفضلها ويختم بالكلام عن أحكام صدقة الفطر، وكل ذلك خير ولكن يمكن أن ينوع الإنسان بين السنين فيخطب – مثلاً – عن القرآن ورمضان، وعن غزوات الرسول في رمضان، وعن استثمار رمضان في إصلاح الذات، وعن استثمار رمضان في إصلاح الآخرين، فيُنوع في خطبه ليتحقق بذلك استفادة الناس، خصوصًا أنهم يسمعون الكلام عن الأحكام من خلال أحاديث بعد صلاة العصر في المساجد.

✍ التبكير بالاختيار: إنَّ الخطيب إذا بكر في الاختيار كان ذلك أدعى لضبط الموضوع إذا يصبح همًّا للخطيب طوال الأسبوع، يبحث عن مراجعه، ويدون بعض الملاحظات عنه، ويستفهم، ويسأل أهل العلم عن جوانبه المستغلقة، فيخرج الموضوع وقد تم نضجه واستوى على سوقه، ويزداد الأمر جودة إذا كان الخطيب قد وضع سلمًا لأولويات ما يخطب عنه، وحرص على إيجاد دفتر ملاحظات خاص يدون فيه ما يأتي على باله من موضوعات يراها جديرة بالطرح ويُدون مع تدوين العنوانات جملة من مراجع، وما كتب فيه من كتب مقالات.

✍ الشمولية: إن الإسلام دين شامل ينظم الحياة كلها، وهذا الشمول سمة من سماته الرئيسة، وخطيب الجمعة حين يختار موضوعاته للناس يجب أن يراعي هذه السمة فلا يكون موغلاً في بيان جانب من الجوانب يركز عليه ويغفل ما سواه، إن الناس يحتاجون إلى بيان أمور الاعتقاد، ويحتاجون إلى تعليم الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، كما يحتاجون للوعظ والرقائق، بل وإلى بيان أحوال الأمم السابقة وما جرى بينهم وبين أنبيائهم واستخلاص عبر تلك الأحداث ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي

ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [1]، والله عز وجل ساق قصصهم في القران الكريم ليكون في ذلك العبرة والذكرى للمؤمنين، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر الناس بأيام الله فقال: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾. [2]

ومن الملاحظ أن الخطيب قد يكون متخصصًا في أمرٍ أَوْ مُهتمًا بأمر فيركز عليه، كأن يكون متخصصًا في الفقه فتكون خطبه كلها فقهية، أو واعظًا فتكون جل خطبه عن المنكرات، وقَد تكون نفسه مائلة إلى جانب فيركز عليه، فتجد من الخطباء من هو دائم الترهيب والتخويف ومن هو دائم الترغيب، ومن حكمة الخطيب أن يجمع في خطبة بين الترغيب والترهيب وبين التعليم والوعظ وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

[1] سورة يوسف (١١١).

[2] سورة إبراهيم (٥).

خاتمة

اعلم أخي الداعي أنني ما أردت بما ذكرت في رسالتنا إلا أن أُذكي روح الغيرة على الدعوة عند جميع دعاة الحق حتى لا يمكنوا منهم أعداء المنهج الصحيح وإننا عندما نتناصح لا ندعي العصمة حاشا وكلا فلا عصمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن نطمع في وجاهة الدعوة حتى تُقبل ولا تُرد وتحظى بإنتشار ونطمع في أن تعود العزة للدعوة ولن تعود إلا بعزة دعاتها ودليل عزها أن يستوى عند دعاتها الغنيُ والفقيرُ.

علم العلم من أتاك لعلم   واغتنم ما حييت منه الدعاء

وليكن عندك الغنيُ إذا ما   طلب العلم والفقير سواء [1]

فإذا عز الدعاة ولم يلتفتوا إلى حطام الدنيا خضع لهم الأمراء ولمَّا سئل أهل البصرة بما سادكم الحسن؟ قالوا: احتجنا إلى علمه واستغنى عما في أيدينا، وبهذا يحكم العلماء الحكام والأمراء كما قال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حكام على الدنيا والعلماء حكام على الملوك. [2]

وأريد من الدعاة ألا يتغيظوا بما يوشي به السفهاء فتضعف عندهم العزيمة.

---

[1] شرح مقدمة المجموع.

[2] العقد الفريد (٢/ ٨٣).

عاب التفقه قوم لا عقول لهم ... وما عليه إذا عابوه من ضرر

ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة ... ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر [1]

وأريد من الدعاة أن يكونوا أعلم بأنفسهم من غيرهم فبذلك تكون النجاة كما قال أبو قلابة: إذا كان الإنسان أعلم بنفسه من الناس فذاك قمنٌ أن ينجوا وإذا كان الناس أعلم به من نفسه فذاك قمنٌ أن يهلك. [2]

والحمد لله رب العالمين.

[1] شرح مقدمة المجموع.

[2] حلية الأولياء (٢/ ٣٢٣).

المحتويات